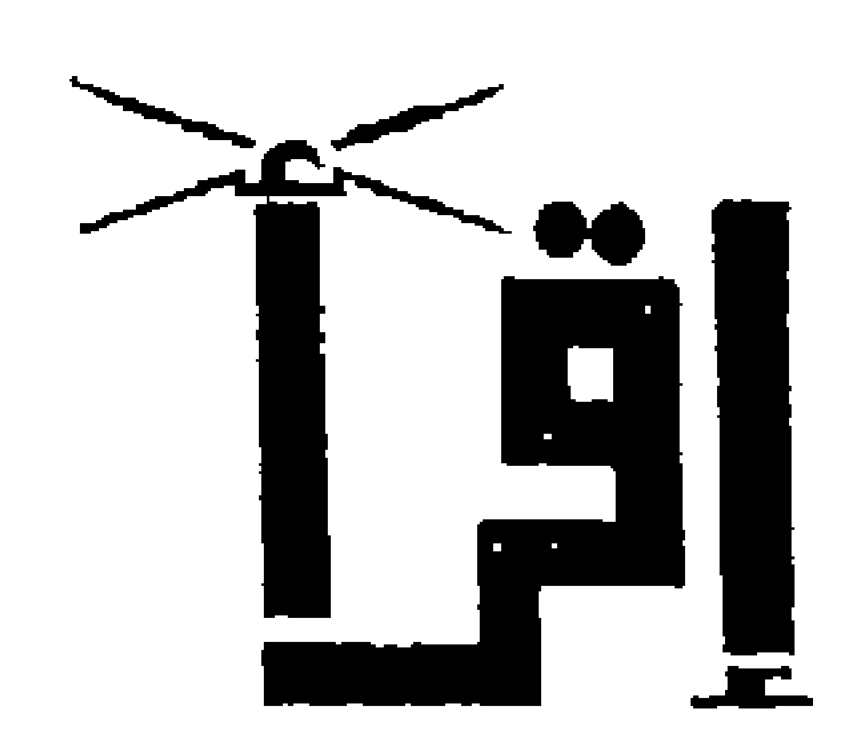
اقرأ

الدكتور إبراهيم بيومي مدكور

في اللغة والأدب





مجلة تصدر فى أول كل شهر
رئيس التحرير : عادل الغضبان





الدكتور إبراهيم مدكور

فى اللغة والأدب

اقرأ ٣٣٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٢٧ – يناير سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

إيضاح

نعمت بصحبة الخالدين زمناً غير قصير : فعادوا بى إلى دراسات صرفتنى عنها شئون شتى . ووجهونى نحو مشاكل فى اللغة والأدب ، عرضت لكل واحدة منها فى استقلال وتحت تأثير ظروف خاصة . وقد عاودت النظر فيها أخيراً ، فلمست ما بينها من صلة ، وتبينت أنه تجمعها وحدة ؛ وأنه يمكن أن يرد قسمها اللغوى إلى أبواب ثلاثة .

فمنها ما يدور حول بعض القضايا اللغوية الكبرى . كتطور اللغة ، والصلة بينها وبين الفكر ، والقياس ، والتعريب ، والنحو العربى فى نشأته وتطوره ، ومنزلة العربية بين اللغات العالمية الكبرى ؛ وهذا هو موضوع الباب الأول .

ومنها ما يعالج لغة العلم بوجه خاص ، فيعرض لخصائصها ومميزاتها ، ولحق العلماء فى وضعها وصياغتها ، ويشير إلى شىء من تاريخها ، وما انتهت إليه اليوم فى لغتنا العربية ، وقد جمع ذلك كله تحت الباب الثانى .

ومنها أخيراً ما يفصل القول فى فن المعجمات ، ويبين تطورها وماوصل إليه المعجم الحديث ، ويقف قليلا عند لون من التأليف المعجمى لم يلحظ فى ترتيبه وتبويبه إلا مجرد نطق الكلمة ، وهو ما سمى المعجم الأبجدى ، وأدرج هذا كله تحت الباب الثالث .

وأما الأدب فلم يحظ إلا بباب واحد ، درست فيه بعض جوانب الشعر والقصة ، وأثيرت مشكلتان كثيراً ما كانتا موضع أخذ ورد ، وهما

مشكلة متن اللغة ، ومشكلة تيسير الكتابة العربية ، وأشير إلى بعض مميزات أدبنا المعاصر .

وإذا كانت هذه الموضوعات قد عولجت منفصلة وفى مراحل زمنية متعددة ، فإن فى جمعها ما يزيدها وضوحاً ويعين على فهمها . ونعتقد أنها لاتزال تشغل الأذهان ، ومن الخير أن تلقى عليها أضواء متلاحقة .

الباب الأول

فى اللغة

١

مجمع اللغة العربية والأكاديمية الفرنسية[1]

الأكاديمية الفرنسية ، منذ قيامها ، نموذج احتذى فى بلاد كثيرة ، فلم يكد يمضى عليها خمس وعشرون سنة حتى أخذ الإنجليز فى محاكاتها بإنشاء « الجمعية العلمية الملكية» الخالدة . وعلى نحو من هذا أسست الأكاديميتان الألمانية والروسية ، وبعض أكاديميات أخرى أوربية كالأكاديمية الإسبانية والبلجيكية .

وفى القرن العشرين قامت فى العالم العربى مجامع علمية ولغوية فى دمشق والقاهرة وبغداد ، وكانت الأكاديمية الفرنسية إلى مدى بعيد نموذجاً لها . وأود أن أقف قليلا عند واحد منها ، وهو مجمع اللغة العربية ، وسأعرض لشيء من تاريخه وتكوينه ونظام العمل فيه وإنتاجه ، مقارناً ذلك بالأكاديمية الفرنسية .

* * *

وفكرة إنشاء مجمع لغوى بمصر ليست بنت القرن العشرين ، بل تصعد إلى القرن الماضى . فقد لاحظ الأستاذ الإمام (١٨٤٩–١٩٠٥) ، وهو ممن عاشوا فى باريس زمناً ، أنا فى حاجة إلى مجمع شبيه

---

(١) مترجم بتصرف مع إضافات عن بحث بالفرنسية ألقى فى « السربون الجديدة » بباريس عام ١٩٦٤ .

بالأكاديمية الفرنسية ، يعنى بتاريخ اللغة ، ويزودها بمصطلحات علمية وحضارية جديدة ويضع فيها معجمات لغوية حديثة — وفى أخريات القرن الماضى اشترك هو نفسه فى « مجمع البكرى » الذى لم يعمر طويلا ، وإن دارت حول مقترحاته مناقشات طويلة فى الصحافة اليومية والشهرية . وفى أوائل هذا القرن بدئت محاولات أخرى ، وعلى رأسها ما اضطلع به لطفى السيد ، وهو من أصدقاء محمد عبده وممن تثقفوا ثقافة فرنسية كاملة . فقد دعا مرة أخرى إلى إنشاء مجمع لغوى ، وأنشأ فعلا فى عام ١٩١٦ ما يسمى « مجمع دار الكتب » ، الذى ضم صفوة من شيوخ اللغة وأدبائها ، وكان هو أمينه العام . وقد تابع هذا المجمع نشاطه إلى أن اعترضت ثورة سنة ١٩١٩ سبيله ، فتوقف تماماً ، وأريد له أن يستأنف العمل عام ١٩٢٣ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة .

ولست فى حاجة أن أشير إلى أن هذه المحاولات كلها قامت على جهود خاصة ، ولم تتدخل الدولة فى الأمر إلا عام ١٩٣٢ ، يوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بصفة رسمية . وكان لطفى السيد أيضاً وراء ذلك ، وهو دون نزاع الأب الحقيقى لمجمع اللغة العربية .

ومما أشبه الليلة بالبارحة ، فإن الأكاديمية الفرنسية سبق لها أن سارت فى الطريق نفسه ، فقد بدأت مؤسسة حرة يرعاها فريق من الكتاب والأدباء الذين كانت تجمعهم لقاءات دورية فى بيوت بعضهم ، ولم يعترف بها رسميا إلا بعد مرور ٤٠ سنة على قيامها . فقد شاء ريشيليو أن يضع هذه الجماعة الأدبية تحت كنفه ، وأن يباهى بأنه « حامى الأكاديمية الفرنسية » .

* * *

إلا أن مجمع اللغة العربية لم يقف فى تكوينه عند الحدود التى رسمتها الأكاديمية الفرنسية ، وحرصت فيها على أن تقصر عضويتها على الفرنسيين .

وبعكس هذا شاء مجمع القاهرة أن يكون مؤسسة عربية لا وطنية ؛ وتلك فكرة ذهب إليها من قبل لطفى السيد عند إنشاء « مجمع دار الكتب ». وكان أعضاء مجمع اللغة العربية فى البداية ٢٠ ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر عرب ومستعربون ، وتقاسمت تونس ولبنان وسوريا والعراق فيما بينها الخمسة العرب ، وتقاسمت ألمانيا وإنجلترة وفرنسا وإيطاليا الخمسة المستعربين — واختير هؤلاء جميعاً لكفايتهم ورسوخ قدمهم فى علوم الأدب واللغة ، دون اعتبار آخر .

واحتفظ مجمع اللغة العربية بهذا الطابع إلى النهاية . والتزم بتخصيص مقاعد لغير المصريين إلى حد أنه فى عام ١٩٣٩ لم يستطع أن يعقد اجتماعه السنوى لتعذر وصول الأعضاء الأجانب ، بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية . واضطر على أثر ذلك أن يزيد أعضاءه ، فصاروا ٣٠ منهم ١٠ من غير المصريين . وبقيت هذه النسبة محترمة فى الجملة أو عادت إلى النصف مرة أخرى . ففى سنة ١٩٤٦ ، رفع عدد الأعضاء إلى ٤٠ ، محاكاة للأكاديمية الفرنسية فى الغالب ، منهم ١٠ غير مصريين ؛ وفى عام ١٩٥٥ صاروا ١٢ مع بقاء العدد الكلى كما هو ، وفى عام ١٩٦٠ بلغوا العشرين إلى جانب ٤٠ من المصريين .

وعلى غرار الأكاديمية الفرنسية حرص مجمع اللغة العربية على استقلاله الإدارى والمالى ، ونماه شيئاً فشيئاً ، فلا يتدخل أحد فى ترشيح أعضائه الجدد ولا فى انتخابهم ، وآثر أن يبقى ذلك عملا مجمعياً داخلياً . وهنا يختلف بعض الشئ عن الأكاديمية الفرنسية ، فإن هذه تحت تأثير ظروف خاصة فرضت على من يريد الانضمام إليها أن يتقدم بطلب خاص ، ولا بأس من أن يزور الأعضاء ويسعى إليهم . الأمر الذى ينفر منه أعضاء مجمع اللغة العربية ، ويرغبون فى أن يتم الترشيح

والانتخاب فى داخل الأسرة وبمحض اختيارها . وإذا ما أحرز المرشح الأغلبية المطلوبة صدر الأمر الملكى أو القرار الجمهورى بتعيينه . ولم تخرج الحكومة على ذلك إلا مرة واحدة عام ١٩٤٢ ، كما حدث فى الأكاديمية إبان الثورة الفرنسية .

ولم يكن بمجمع اللغة العربية فى البداية إلا هيئة واحدة مكونة من المصريين وغيرهم . وكانت تعقد اجتماعاتها لمدة شهر ونصف كل عام . وفى سنة ١٩٤٠ قسم إلى هيئتين : مجلس . ومؤتمر . ويشتمل المجلس على الأعضاء المصريين الذين يعقدون اجتماعاً كل أسبوع على الأقل لمدة ثمانية أشهر فى السنة ، من أول أكتوبر إلى آخر مايو . ويشتمل المؤتمر على أعضاء المجمع جميعاً . مصريين وغير مصريين . ولا بد له أن يعقد كل عام دورة على الأقل تتفاوت مدتها بين أسبوعين وستة أسابيع . وعليه أن ينظر فيما أقره المجلس فى دور انعقاده السابق . ولا تصبح قرارات المجلس نهائية إلا بعد أن يوافق عليها المؤتمر .

وإلى جانب الأعضاء العاملين ، أخذ مجمع اللغة العربية بنظام الأعضاء المراسلين الذين يغذونه بما يشاءون من بحوث ودراسات ، ولهم حق حضور جلسات المجلس والمؤتمر ، دون الاشتراك فى التصويت . وفى المجمع الآن نحو مائة وعشرين عضواً مراسلا من أطراف الدنيا المختلفة ، بين شرقيين وغربيين ، إفريقيين وآسيويين ، أوربيين وأمريكيين ، ممن لهم ولوع بالعربية وحرص على خدمتها ؛ وفى هذا ما عزز الطابع العلمى والعالمى للمجمع . وقد أمده بعض هؤلاء الأعضاء المراسلين بدراسات لها وزنها ، وفى وسعهم أن يعينوه على معالجة مشاكل اللهجات المحلية والاستعمالات الإقليمية .

ولا يكتفى المجمع بجهود أعضائه ، بل يستعين بالخبراء والمتخصصين فى أبواب الثقافة المختلفة ، وهم فى الغالب أساتذة جامعيون ، أو فنيون

ممتازون ، وفى قوائمه اليوم منهم ما يزيد على المائة . ويشترك الخبراء فى لجان المجمع ومجلسه ومؤتمره ويشرحون وجهة نظرهم ويدافعون عنها ويؤدون للعلم واللغة خدمات جليلة .

ويعدّ المجمع جيلا من الباحثين والمحررين ، ينهجون نهجه ، ويدربون على طرائقه فى البحث والدرس ، ومنهم من أشرب بروحه وأصبح جزءاً منه ، وهم عماده الأول وجهازه الثابت . ومن الخطأ أن يظن أن إنتاج المجمع ثمرة جهود أعضائه وحدهم ، بل للخبراء وهيئة التحرير فى ذلك نصيب ملحوظ .

وبفضل هذا التعاون الشامل بين المصريين وغير المصريين ، بين المجمعيين وغير المجمعيين ، استطاع مجمع اللغة العربية فى خلال مدة قصيرة نسبياً أن يعالج مشكلات شتى فى متن اللغة وأصولها ، فى نحوها وصرفها ، ولم تفته بعض الصعوبات المدرسية كالإملاء والكتابة العربية. وسنلقى نظرة سريعة على إنتاجه بوجه عام .

* * *

ونحن نعلم أنه لم يحدد للأكاديمية الفرنسية يوم تكوينها مهمة واضحة ، واكتفى قرار إنشائها بأن نص على أن هدفها هو : « أن تحفظ على الفرنسية — رشاقتها ، وأن تجعلها قادرة على سد حاجات العلوم والفنون». وقد اضطر فينلون فى خطاب استقباله فى أوائل القرن الثامن عشر أن يحدد هذا الهدف ، وحصره فى خمسة أمور : المعجمات ، والنحو ، والخطابة ، والشعر ، والإملاء ، ولكن هذا البرنامج لم يلتزم فى دقة .

وبعكس هذا حدد غرض مجمع اللغة العربية منذ نشأته ، وأريد به خاصة أن يحرص على سلامة اللغة وتيسيرها ، وأن يغذيها وينميها بما هى فى حاجة إليه من ألفاظ ومصطلحات ، وأن ينهض بالمعجم العربى ويجعله ملائماً لفن المعجمات الحديث . ولم تلبث هذه الأهداف أن

اتضحت أمامه ، وأخذ يعلها ويرسم مناهج تحقيقها ووسائل الوصول إليها ، وأصبحت له فى ذلك تقاليد واضحة .

وللعربية ماض طويل يعرفه المجمع ويقدره ؛ ولكنه يؤمن بأنها لغة حية تتغير وتتبدل كسائر الظواهر الاجتماعية ، وقد مرت بها تطورات مختلفة على مر الزمن ، ولم يبق محل للقول بأنها استقرت عند أوضاع لاتقبل التغيير والتبديل . فهناك استعمالات قديمة وأخرى حديثة ، وأساليب جاهلية أو عباسية وأخرى عصرية ؛ وفصحى الأمس تختلف عن فصحى اليوم . ومن حقنا أن نقيس ونشتق كما قاس الأقدمون واشتقوا ، بل من حقنا أن نعرب ونضيف إلى لغتنا ألفاظاً أخذت من لغات أخرى .

وعلى هذا سار مجمع اللغة العربية منذ خمس وثلاثين سنة ، وتوسعة لمتن اللغة وتيسيراً للقياس والاشتقاق وضع طائفة من القواعد أفادمنها الباحثون والدارسون . وقد أخرجت عام ١٩٦٣ تحت عنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ولم يبق من طبعتها الأولى شئ يذكر . وأضاف إليها فى العام الماضى (١٩٦٩) مجموعة أخرى تحت عنوان : « فى أصول اللغة » ، وهى تسير على نهج المجموعة الأولى فى التجديد والتيسير ، وأصبحنا لانشك اليوم فى أنا نملك اللغة ، وليست هى التى تملكنا ، وفى وسعنا أن نستخدمها كما نريد ، ما دمنا لانخرج عن أصولها ومبادئها .

وقد عنى المجمع بالمصطلح العلمى عناية خاصة ، « والعلم لغة أحكم وضعها » . وللعلوم الإسلامية مصطلحات قديمة احتفظ ببعضها وأهمل كثير منها ، ثم جاء العلم الحديث بكشوف وحقائق جديدة لابد لها من قوالب لفظية تؤديها . وفى أوائل القرن الماضى قامت فى مصر حركة علمية تلكأت فى السير قليلا ، ثم ما لبثت أن نشطت ، وزاد نشاطها فى القرن الحاضر ، ومست الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية وحضارية جديدة ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التى دفعت إلى التفكير فى إنشاء مجمع لغوى .

وقد شغل مجمع اللغة العربية فعلا منذ نشأته بالمصطلح العلمي كثيراً ، ووقف عليه معظم جلساته ؛ واستطاع أن يقر منه عشرات الآلا في شتى العلوم والفنون وأخرجها في مجموعات خاصة تعد نواة للمعجمات العلمية . وقد بدأ في إخراج بعض هذه المعجمات ، ويأمل أن يتوسع فيها . ونستطيع أن نقرر أنه أضحى اليوم أكبر مؤسسة تعنى بالمصطلح العلمي والحضاري في العالم العربي . ويحرص دائماً على أن يقابل المصطلح العربي بنظيره في الفرنسية أو الإنجليزية أو فيهما معاً . وربما كان بعض المصطلحات العربية أدق في معناه من اللفظ الأجنبي . وهنا يختلف مجمع اللغة العربية عن الأكاديمية الفرنسية التي وكلت أمر المصطلح العلمي لسواها ؛ ولم تقبله في معجمها إلا في طبعته الرابعة، بعد مرور مائة عام على نشره .

وفي العربية معجمات لغوية كثيرة. ولعلها في هذا من أغنى اللغات، ولم يخل عصر من عصورها من ظهور معجم لغوي جديد . وإذا كنا لم نقف عليها جميعها ، فقد وصل إلينا منها قدر لانزال نرجع إليه ونعول عليه؛ ومنه ماترجم إلى بعض اللغات الأوربية . وفي هذه المعجمات القديمة مادة غزيرة ، ومعلومات متنوعة ، وثروة لغوية قيمة . ولكنها في مادتها مقصورة على أساليب الجاهلية وصدر الإسلام ، ولاتسلم بمااستحدثته العصور التالية من تراكيب واستعمالات . ومنهجها لا يتفق مع فن التأليف المعجمي الحديث ، فتبويبها معقد ، وتعريفاتها غامضة أو خاطئة .

وقد تنبه المجمع إلى نواحي النقص هذه ، وأخذ يعد لإخراج معاجم حديثة تقوم على أساس من المنهج التاريخي على نحو « معجم أكسفورد » في الإنجليزية ، واعتداد بالجانب الموسوعي « كمعجم لاروس » في الفرنسية . وشاءت المصادفات أن يكون بين أعضاء المجمع لغوي ألماني كبير هو الدكتور فيشر وقف خمسين سنة من حياته على المعجم العربي ، أعد مادة لمعجم

تاريخي تعاقدمع المجمع على إخراجه. ووقفت الحرب العالمية الثانية مع الأسف في سبيل ظهوره. فلم ير المجمع بدا من أن يضع بنفسه «معجمه الكبير»، وقضى زمناً غير قصير في تحديد أهدافه ورسم منهجه وجمع مادته ؛ وهاهو ذا يخرج الآن سنة ١٩٧٠ الجزء الأول منه ؛ ويأمل أن تليه تباعاً الأجزاء الأخرى .

وقد أخرج عام ١٩٦٠ « معجمه الوسيط » : وهو خطوة هامة في سبيل التأليف المعجمي ، يسجل الفصيح ؛ ويضم إليه المحدث والمولد ، ويأخذ بالترتيب الهجائي في التقسيم والتبويب . فسد حاجة ؛ وأقبل عليه الباحثون والدارسون ، ولم تلبث طبعته الأولى أن نفدت . والمجمع الآن بصدد إخراج الطبعة الثانية ، بعد أن أدخل عليها ما أدخل من تهذيب وتنقيح . وما أشبهه ببعض المعاجم الحديثة ، كمعجم « لاروس الصغير » .

* * *

وهنا أيضاً نجد مجمع اللغة العربية ابن القرن العشرين ، ينتج أكثر مما أنتجت أكاديمية القرن السابع عشر ، وينزل عند حاجات العصر ومقتضياته . فيلتزم في معجماته تبويباً أيسر ، وتعريفات أوضح . ويأخذ بقدر من المصطلحات العلمية ، ويشرحها شرحاً دقيقاً فنياً. وقد ترددت الأكاديمية الفرنسية طويلا في أن تثبت في معجمها الوحيد المصطلحات العلمية ، برغم نموها وتجددها ، ورفضت حتى الآن أن تفسح للأعلام مكاناً . أما المولد والمحدث فقد أنكرته إنكاراً باتاً طوال قرنين كاملين ، ولم تأخذ به إلا في القرن العشرين ، وبتحفظ تام .

٢

الفكر واللغة

اللغة ابتكار من أبدع ما وصل إليه الإنسان : وأداة تمتاز بكثير من الدقة والإتقان ، ووسيلة ناجعة من وسائل الاتصال والتفاهم بين الأفراد والجماعات . وهي ظاهرة متشعبة النواحي ، أثارت ألواناً شتى من البحث والدراسة . وإذا تركنا جانباً مايتصل بها من دراسات أدبية ونحوية وصرفية ، فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة .

فعرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى ، ويبينوا أعضاء النطق والصوت ورسموا فى اختصار الجهاز العضوى للغة . وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهني والدلالات اللغوية ، وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها ، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة ، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات . ونظر إلى اللغة أخيراً على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى ويحكى الأحداث ، بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها .

ودون أن نعرض لهذه النواحي المختلفة ، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة ، وفى هذه الصلة ما يلقى كثيراً من الضوء على مناقشاتنا ، وبخاصة ما يتصل منها بالمصطلحات ووضعها ، والمترادفات وقيمتها ، وألفاظ الحضارة وتجددها ، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها ولاشك أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذى يؤديه ، لأنه ثوبه ووعاؤه ، وبدونه يضل ويصبح كأن لاوجود له ، فلا يمكن تبادله بين الأفراد ،

ولا استحضاره فى ذهن الفرد الواحد ، وقديماً قالوا : « التفكير حديث نفسى » ، ومن هنا ارتبط التفكير باللغة ، وبالأخص فى صوره السامية كالحكم والاستدلال .

* * *

وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به . فاللغة فى نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهنى والميول والاتجاهات النفسية . وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستعدادات : فيدفع الطفل يده إلى الأمام مشيراً إلى التقدم ، أو إلى الخلف مشيراً إلى التراجع ، وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية . ولاتلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات ، والإشارات إلى أصوات ، والأصوات إلى ألفاظ وجمل . وهكذا تنشأ اللغة فى تدرجها الطبيعى ، وتقوم على أساس سيكلوجى .

لم يؤثر الفكر فى نشأة اللغة فحسب ، بل أسهم أيضاً بنصيب ملحوظ فى حفظها والإبقاء عليها ، لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة لاسبيل إليه إلا بالنقل والرواية . ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة « ولولا الذاكرة ما كانت لغة » كما يقولون . وقد يكون فى الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة ، ولكن كم من جماعات لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها . وكلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح فى حياة البداوة منها فى حياة الحضر ، لأن المتحضرين فى اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون ذاكرتهم ويقللون استخدامها ، على أن الكتابة نفسها لايمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضرورى من الحفظ والتذكر .

وللحياة الفكرية أثر آخر فى نهضة اللغة ونموها ، إذ لولا تجدد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ ولاتنوعت التراكيب . ولولا عمق الفكرة وتجددها ما كانت دقة اللفظ وتخيره ، وكم يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أو التعبير الذى استعمله لا يؤدى تماماً المعنى الذى يريده ، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعاً لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفية والفنية التى عرفتها أثينا فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . وقد لوحظ أيضاً أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعانى فى اللغات البدائية ، لأن البدائيين لايلجئون كثيراً إلى التعميم والتجريد . وتساهم فكرة الزمن بنصيب أوضح فى لغة المتحضرين منه فى لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لايقتصر على تبادل الأفكار بل يصاحبه أيضاً تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها ، وكثيراً ما كشفت هذه عن أصل تلك .

* * *

وللغة بدورها أثر قوى فى التفكير ، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته ، ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما فى الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التى قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهى : « ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية » ، وفى مقدمة هذه الصور تجىء الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا فى القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة ڤورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضرباً من التفكير مجرداً من تلك الصور الذهنية كتفكير الأطفال الذى تمليه طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والخواطر التى تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء .

ودون أن نقف طويلا إزاء هذين الرأيين المتقابلين ، نود أن نلاحظ أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير ، وهناك ضروب أخرى ذات حلقات

لايمكن ربط بعضها ببعض إلابواسطة الرموز اللغوية . على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظاً أو ألفاظاً . ولذا قالوا إن المرء يفكر فى كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره . فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لاغنى له عن اللفظ والعبارة .

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض ، وإذا كانت المدلولات متنوعة ، فمن اللازم أن تتنوع الدوال تبعاً لها . ولاشك فى أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا : عموماً وخصوصاً ، جنساً ونوعاً . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولاتحليلها وتركيبها . وآية الفكر الدقيق تعبير دقيق يؤديه ، والعبارة المحكمة تؤدى عادة إلى تفكير محكم . وبهذا تنوعت العلوم ، وتحددت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها .

واللغة أخيراً سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفاً على أصحابها ومحبوسة فى صدورهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به ، فإن للغة دخلا كبيراً فى هذا الخضوع والتأثير . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع فى قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها .

* * *

فى وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير ، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحققه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار متعددة ، يعنينا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولهما أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية فى ضوء الحياة اللغوية . فمثلا ضعف النطق أو بطؤه يؤذن بضعف ذهنى ، والأطفال لايعبرون عن أحكامهم عادة بجملة وإنما

يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوى الذى يرمى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية فى ضوء الدراسات اللغوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار ، و « بياجيه » بالنسبة للغة الأطفال ، و « ليفى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيراً فى الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والباثولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً فى هذه الفترة مادة لابأس بها من الدراسات اللغوية .

* * *

وفى تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائماً بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان يسود الغموض والرمز فى الألفاظ والأساليب ، ولتلك الحرية الفكرية التى نعم بها الأثينيون القدامى شأن فى وضوح لغتهم وصفائها . وإذا كانت المترادفات تعد ثروة لغوية فى بعض العصور ، فإنها فى عصور أخرى تعتبر سرفاً لاداعى له ولا محل .

ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة المناطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم. ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت فى جو البيان والجدل السفسطائى ، وكان ذا صلة بالنحو اليونانى ، بل العربى . ولأمر ما تطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المناطقة منذ أرسطو على أن يعدوا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المناطقة المحدثون بهذا ، بل شاءوا أن يحصروا المعانى كلها ويجمعوا « ألف باء» الفكر الإنسانى ، ويضعوا لكل معنى رمزاً خاصاً به ، وبذا تتكون « اللغة العلمية العالمية » .

قال بذلك « ليبنتز » فتنبأ بالمنطق الرياضى ، وسبق عصره بنحو

قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولاغرابة ، فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهده ؛ هذا إلى أنه كان عالمي النزعة ، إن في العلم أو في السياسة . وفي هذه اللغة المنشودة ما يقرب المسافة بين بني الإنسان ، وما يحول دون أخطاء كثيرة ؛ لأن الخطأ في الحكم والاستدلال كثيراً ماينشأ عن خلاف لفظي أو غموض فيالتعبير . ويوم أن يتوافر لكل معنى رمزخاص به ، نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن .

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة في أول هذا القرن ، وكان من أكبر أنصارها رياضي فيلسوف فرنسي بارع انتزع فجأة في الحرب العالمية الأولى ، وهو « كوتورا » الذي كان يرمي إلى تهذيب « الإسبرنتو » وتكوين « الإيدو » ، تلك اللغة الدولية التي تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب ؛ وقد وضع في ذلك معجماً خاصاً ، أخذ عنه كثيراً « لالاند » في معجمه الفلسفي المشهور .

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب لأنها أبعدها مدى في العموم والتجريد . . فإذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة ، وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية . وقد كان « كوتورا » فوق تخصصه في المنطق والرياضة ، ملماً بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساساً للغة الدولية ، وحاول فعلا أن يكون هذه اللغة ويعد لها نحوها الخاص .

ولم تلبث محاولته هذه أن أثارت ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين ، وعلى رأسهم « دركايم » . فلم يرتضوا ذلك المنطق الإنساني الذي يقود إلى لغة عالمية ، وقرروا أن هناك أمراً لغوية بقدر ماهنالك من مجتمعات إنسانية .

وسواء أصحت الأسس التي بنى عليها « كوتورا » مقترحه أم لم تصح ، فإن

فكرة اللغة الدولية ازدادت فى ربع القرن الأخير قوة ووضوحاً . ولعل فى سرعة الاتصال العالمى اليوم ما ييسر سبلها . ويتيح لها الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود .

* * *

فى هذا العرض السريع ما يلقى بعض الضوء على العمل المجمعى ، ومنه نستخلص دروساً نافعة : وفى مقدمتها أن الأصل فى المصطلح العلمى أن يؤدى بلفظ واحد كى يتوافر لكل معنى رمزه اللغوى الخاص به . فلنتحاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد ، لأنها تكرار لاداعى إليه وربما أدى إلى شىء من اللبس . والمصطلح المجمع عليه — وإن لم يؤد المعنى المراد تماماً — سينتهى بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر .

ونحن أحرص ما نكون على أن نؤدى المعنى العلمى الجديد بلفظ عربى ، فإن تعذر ذلك فلا ضير من التعريب ، لاسيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالمية ، وهذا هو المنحى العلمى فى مختلف اللغات . ومن ذا الذى يذكر مذهب « ليبنتز » مثلا ولايذكر معه كلمة « مناد » Monad ! إنا نراها فى اللغات الأوربية على اختلافها دون تغيير أو تبديل .

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب ، فإذا كانت المعانى المفردة فى تجدد فإن المعانى المركبة التى تعتمد على الرابطة والإسناد تتجدد أيضاً ، وإذا كنا نحس بحاجة إلى ألفاظ جديدة ، فإنا فى حاجة أيضاً إلى أساليب جديدة . وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حيناً وترد حيناً آخر . بيد أنا إذا كنا فى حل من ابتكار اللفظة فلا غضاضة علينا فى ابتكار

الأسلوب ما دام يلتقى مع الأوضاع العربية . والفكر — فى خلقه وابتكاره ، فى حركته وتنوعه — يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب مايؤدى المعانى المختلفة والمتنوعة .

وأخيراً إنا نعيش فى عصر من أخص خصائصه محاولة الاقتصاد فى المجهود الجسمى والذهنى ، وذلك لتزاحم الأعمال وضيق الوقت ، وكلنا يود أن ينتج أكبر قدر ممكن فى أقصر وقت ممكن . وأنفع الحقائق ما يمكن توصيله عن أيسر السبل وأقربها — وإذا كان العلم قد اتسع صدره قديماً للدراسات الطويلة والمجلدات الضخمة فإنه يعنى اليوم بإحكام المعنى والمبنى . وإذا كان الأدب يباهى فيما مضى بالسجع والترادف والمحسنات اللفظية ، فإنه أضحى اليوم يحرص الحرص كله على السهولة والجزالة والدقة والوضوح .

هذه هى روح العصر ، وتلك هى مقتضياته . ولاسبيل للخروج عليها .

٣

اللغة المثالية

لئن كان لعلم اللغات المقارن قوانين ، إن من أعمها وأصدقها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى ، فمن إعداد ونشأة ، إلى تشخص وتكون ، ثم إلى كمال ونضج . وقد يدور بها الزمن دورة معاكسة ، فتتضاءل وتتراجع ، وتضمر وتنكمش ، وتتفرق وتتشعب . فهل لها فى هذا السير أغراض تصوب إليها ومثل عليا تنشدها ؟ أو الأمر مجرد حركة عمياء لاهدف لها ولاغاية ؟

أما أن اللغات متحركة ومتغيرة فهذا ما لا يعز إثباته ، ذلك لأن طبيعتها تقتضى الحركة والتغير ، والواقع يؤيدهما . ولقد اختلف الباحثون فى طبيعة اللغة ، ففريق عدها ظاهرة نفسية خالصة ، وآخرون رأوها مجرد ظاهرة اجتماعية ، ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا : « إنها تعبير عن انفعالات ووجدانات وأفكار وآراء بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها » . فللوجدان والفكر نصيب فى حياة اللغة إلى جانب نصيب البيئة والمجتمع .

ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ما للانفعالات من أثر فى نشأة اللغة بل فى نموها وكمالها أيضاً ؟ فلغة الأطفال — أو اللغة الطبيعية — تكاد تكون مجموعة انفعالات متلاحقة تعبر عنها إشارات وحركات خاصة ، وهناك شعوب وقبائل بدائية لاتستطيع أن تتفاهم ليلا إلا إذا أشعلت النار ، كى تظهر إشارات الأيدى وحركاتها . ولاتزال حتى اليوم تستعين ، لإبراز

معنى أو توضيح شعور ، بحركة اليد ونبرة الصوت ، وكم أملت العواطف والوجدانات على كبار الكتاب والشعراء صوراً ساحرة وتشبيهات بديعة .

والتفكير ينتهي دائماً إلى لغة ، بل لاسبيل إلى المنطق والسامي منه بدونها ، وقديماً قال أفلاطون جملة بقيت خالدة ، هي أن « التفكير كلام نفسي » . ولعل هذا يلتقي مع ماجاء على لسان شاعرنا العربي :

إن الكلام لفي الفؤد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وإذا كان علماء اللغة لم يأبهوا كثيراً للصلة بين الفكر واللغة ، فقد تنبه لها الفلاسفة وعلماء النفس ، وشاءوا أن يجعلوا من الفكر لغة ومن اللغة فكراً . لهذا لم يكن غريباً أن تعرف « اللغة العالمية » لدى الفلاسفة والمناطقة قبل أن تعرف لدى اللغويين . من ليبنتز إلى كوتورا هناك مجهود متصل يرمى إلى حصر الأفكار الإنسانية وتحديد الألفاظ الدالة عليها ، بحيث نستطيع أن نخلق من ذلك لغة عالمية ليست « الإسبرنتو » إلا صدى لها .

وإذا كانت الوجدانات والعواطف والأفكار والآراء هي المدلولات ، فلا بدلها من دوال تبرزها وتعبر عنها . وإذا ما جاوزت هذه الدوال الحركات الفطرية استلزمت عرفاً واتفاقاً لاقيمة له إلا إن أقره المجتمع ورضى به . على أنه لابد للحركات نفسها من اصطلاح وتفاهم مشترك ، وإلا أصبحت مقصورة على صاحبها ولا مدلول لها ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الأصوات والعبارات . ومن هنا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ونظاماً عاماً يخضع له الأفراد وإن حاولوا تغييره وتبديله ، وتبقى محاولاتهم جزئية وفردية إلى أن يقرها المجتمع ويمنحها نفوذه وسلطانه ، فلا وجود للغة بمعزل عن مجتمع يتكلم بها ويتفاهم في ضوئها .

هذه هي عناصر اللغة : وجدان وعاطفة ، وفكر ورأى ، وبيئة ومجتمع ،

أو إن شئت : ومدلولات ودوال. وكلها بلاشك متغيرة ومتحولة. فالوجدانات والعواطف فى نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات . وكم من عواطف إنسانية كحب الغير واحترامه لاتكاد تعرف لدى بعض القبائل الهمجية ، واليونان الذين خلفوا على الدهر فلسفة خالدة كانوا يعدون كل من وراء أثينا برابرة .

والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة . وتعمق بطول البحث والتأمل ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع . وفى ذلك نمو اللغة وتقدمها . وقد أثبت الرحالة وعلماء الشعوب أن هناك قبائل لاتعرف الكليات والمعانى العامة . وكل مالديها من ألفاظ إنما يدل على المحسات والجزئيات ، فى حين أن التفكير الراقى إنما يعنى بالمبادئ والقضايا الكلية .

والحياة الجمعية فى تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة فى التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى ممعنة فى الحضارة والمدنية، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها وتنوعت اتجاهات حاجاتها ، وأضحى لزاماً أن تسايرها فى كل ذلك لغتها . فيتسع متنها وتزيد مفرداتها بالوضع أو الاشتقاق أو الاقتباس ، وتسمو أساليبها وتتباين فنون القول فيها . فاللغة تولد فى المجتمع وتتغذى منه .

* * *

وليس بعزيز علينا أيضاً أن نلحظ حركة اللغات وتطورها فى ضوء الواقع والتاريخ ، فالإغريقية التى تعد من أجمل اللغات الإنسانية بدأت أول ما بدأت فى صورة لهجات عدة ورطانات متباينة ، تلاقت بحكم الجوار والاختلاط ، وتنافست فيما بينها واحتك بعضها ببعض ، ووقعت فى صراع عنيف تولدت عنه اللغة الإغريقية الحقة الغزيرة المادة ، الواضحة المنطق ، السهلة التركيب . وقد بلغت هذه اللغة قمتها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد فى العصر الذهبى للأدب اليونانى ، عصر تراجيديا سوفوكل

وكوميديا أرستوفان وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت تضعف وتتضاءل إلى أن دهمتها اللاتينية وطغت عليها، وانمحت تقريباً فى ظلمات القرون الوسطى . وهاهى ذى تستعيد حياة أخرى تختلف دون نزاع عن حياتها القديمة ، وتظهر فى ثوب الإغريقية الحديثة التى يعالجها اليونانيون اليوم .

ولغتنا العربية لم تصل إلى ما وصلت إليه فى عصر المعلقات ، من غزل امرئ القيس ، وحماسة مهلهل ، وفخر ابن كلثوم، إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل ، ثم جاء الإسلام فهذب حواشيها ورقق عباراتها وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو وتغزر لفظاً ومعنى فى عهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفاسد ، وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها ، وما إن حل النصف الأخير من القرن الماضى حتى عادت تنشط وتنهض، وتسلك سبل الحياة فى حماسة وقوة .

والفرنسية لغة الوضوح والدقة ليست فى أصلها إلا ضرباً من اللاتينية الدارجة ، اختلط بعناصر جرمانية ، وتأثر ببيئة وظروف خاصة ، ثم أخذ ينشأ ويتكون على مر الزمن، وقد قضى العشرة القرون الأولى للميلاد فى مرحلة هذه النشأة . وكان لابد أن ننتظر إلى القرن الحادى عشر لنرى الفرنسية القديمة فى صفاتها وخصائصها ، وكأنما تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها واتساع مجدها . وقد وصلت إلى قمتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حين ظهر كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء، أمثال ديكارت ، وراسين ، وروسو ، وڤولتير . وفى القرن التاسع عشر ظهرت فيها ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة فى الأدب كالمذهب الرومانطيقى والمذهب الرمزى ، وها هى ذى تسير فى طريقها إلى اليوم بين تنوع وتجدد، وتحول وتغير .

* * *

الآن — وقد وضحت أمامنا حركة اللغات فى قوتها وضعفها ، فى سرعتها وبطئها — يحق لنا أن نتساءل : إلام ترمى هذه الحركة ؟ وهل لها غايات تهدف إليها ومثل عليا تريد تحقيقها ؟ وإن كانت فما هى ؟ .

يظهر أن المذهب المثالى قد وجد سبيله إلى العلوم الإنسانية على اختلافها ، فللأخلاق مثلها كما أن للفنون والآداب مثلا من نوعها . وأخذ الباحثون فى هذه النواحى يقابلون ما هو كائن بما ينبغى أن يكون . وليتهم رسموا مثلهم العليا فى ضوء الواقع والواقع وحده ، إذن لبدت عملية يسيرة المنال . ولكنهم أبوا إلا أن يرسلوا فيها خيالهم ويمعنوا تفكيرهم فأخذ الناس يتعشقونها ، ولكن هيهات أن يصلوا إليها . وإذا كان أفلاطون قد بذر بذور المثالية فى التاريخ القديم ، فإن كانط غذاها ونماها فى التاريخ الحديث .

ولهذه المثالية شأنها لدى علماء اللغات ، فقد كان معظمهم يعتقد حتى خمسين سنة مضت أن لكل لغة مثلا أعلى تصل إليه أو تقاربه يوماً ما ، وهذا المثل وحده هو الذى يجب أن يحاكى ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل . وهو فى الغالب وقف على اللغات القديمة ، أو إن شئت بعبارة أدق على عصور سبقتنا . وللقديم دائماً حرمته وقداسته ، فليس ثمة إغريقية إلا تلك التى جرت على لسان أفلاطون وأرستوفان ، ولا عربية إلا تلك التى عرفت فى الجاهلية والإسلام إلى صدر الدولة العباسية ، ولا فرنسية إلا تلك التى دونتها مؤلفات القرن السابع عشر والثامن عشر . وإذا لم يراع المصرى اليوم — وفى القرن العشرين — أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فهو ليس بفصيح ولا بعربى .

ويخيل إلى أن هذا الفريق يخلط بين اللغة والأدب ، ويتجاهل طبائع اللغات والمجتمع معاً ، فاللغة شىء والأدب شىء آخر ، فقد يضعف الأدب فى أمة ، ولكن تبقى لغتها وسيلة للتعبير والتفاهم بقدر ما يتيسر لها .

على أن اللغة نفسها فى حركة دائمة وتاريخها مجموعة أحوال متعاقبة . وليس ثمة كمال مطلق فى عالم اللغات ، ولاتقديس لعصر بعينه ، وكل ما فى الأمر رقى وكمال نسبي ، وأكمل اللغات وأمثلها ما حاكى العصر وتلاقى ، فى يسر ، مع حاجات المجتمع العملية والعلمية .

* * *

إن اللغات فى حركة مستمرة ، فمن العبث أن نعترضها ونقف فى طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لاتلبث أن تخرج عليها ، وإن الصورة المثالية القديمة التى كانت تفرض للغات لايقرها العلم المعاصر ولايقول بها ، فقد أصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة . فاللغة المثالية هى تلك التى تصدر عن روح العصر ، وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على أخصر صورة وأوضح مظهر ، ذلك لأنا فى جيل ينشد الاقتصاد والسرعة فى كل شىء ، وينفر من تلك الألفاظ والعبارات التى تعوق تفكيرنا وحركتنا ، هذا إلى أننا نعشق الوضوح الذى تمليه الديمقراطية وتقضى به الحياة الحرة الصريحة .

٤

تطور اللغة

العالم يسير ، وقل من شك فى سيره ، وقديماً قال الناس بالتطور ، وأخذت به مدارس مختلفة . وكل فلسفة تسلم بمبدأ التحول ، والصيرورة لايمكن إلا أن تكون تطورية . وعد أرسطو على رأس القائلين بالتطور فى التاريخ القديم ، وسار على نهجه كثيرون من فلاسفة التاريخ المتوسط والحديث . ولكن أحداً منهم لم يدفع نظرية التطور تلك الدفعة القوية التى دفعها إياها « هربرت سبنسر » فى النصف الأخير من القرن الماضى : فقد حاول أن يقيمها على دعائم علمية . وفى ضوء التقدم العلمى يزداد الإيمان بها جيلا بعد جيل ؛ بل نستطيع أن نقول اليوم عاماً بعد عام .

والتطور صادق على كل شىء . على الإنسان والحيوان والنبات : على الفرد والمجتمع ، على المادة والصورة ، على الفكر واللغة . فكلها تسير وتتحرك ، وكلها تتحول وتتبدل . والعلم لايبالى إن كان ذلك إلى أحسن أو أسوأ ، فهو إنما يعنى بالواقع وحده ؛ على أن التطوريين فى أغلبهم تقدميون . ولم يكن عبثاً أن يتوالى فى تاريخ الفكر البشرى قرنان يسمى أحدهما قرن التقدم ، وهو الثامن عشر ، والآخر قرن التطور ، وهو التاسع عشر ، وكأنما جاء هذا ليفسر ذاك .

وما اللغة إلا قطعة من الحياة ، نشأت منها ، وسارت معها . وتغذت بغذائها ، ولذا كانت صورة للمجتمع الذى يتخاطب بها ، تنهض بنهوضه ، وتركد لركوده .. وتاريخ اللغات مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات على اختلافها . ويزداد تطور اللغات كلما ازداد انتشارها وكثر المتكلمون بها ، لأنها تدخل فى صراع مع لغات ولهجات جديدة ،

فتفقد بعض خصائصها . وتكشف عن القوى الكامنة فيها وعن عوامل بقائها.

* * *

ومنذ أخريات القرن الماضي عني بدراسة تطور اللغات باحثون مختلفون بين لغويين واجتماعيين. وتبينوا أن فى العالم ما يزيد على ألف جماعة لغوية . حاولوا ردها إلى أسر وفصائل : ووقفت جهودهم بوجه خاص عند فصيلتين هامتين تتصلان اتصالا وثيقاً بالحضارة الإنسانية ، وهما « الهندو أوربية» والسامية . وتحت كل فصيلة من هذه الفصائل عدة لغات — ومتكلمو كل لغة يختلف عددهم اختلافاً بيناً ، فهناك لغات يبلغ متكلموها مئات الملايين ، وأخرى يهبط عدد الناطقين بها إلى عشرات من الناس . ومن بين هذه اللغات أمهات تفرعت منها فروع مختلفة اندثر بعضها وعمر بعضها الآخر . ومن بينها لهجات محلية تحولت إلى لغات إقليمية أو وطنية .

ولقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية عن عوامل شتى فى تطور اللغة ، فلاحظت أن لغة الشعوب البدائية مجرد حركات وأصوات تعبر عن مشاعر ووجدانات ، وما أشبهها بلغة الحيوانات . وفرضت الحفلات الجماعية هذه الحركات والأصوات على جميع الأفراد ، وبمضى الزمن أخذت الأصوات تتنوع وتتعقد، وتولدت منها دلالات لفظية خاصة. ومن المرجح أن اللغات تبدأ أولا بالألفاظ المفردة ، ولم تظهر التراكيب إلا فى مراحل متأخرة واقتصرت الألفاظ فى البداية على المحسوس والملموس، فعبرت عن الأفعال والحركات ، ووقفت عند الأشياء المرئية والمسموعة ، ولم تسم إلى التعبير عن الأفكار والمجردات إلا بعد أن وصل المجتمع إلى مستوى ثقافى خاص . ولبعض الألفاظ عند البدائيين تأثير وقوى خفية ، ومنها ما ينبغى أن يبقى سرا لا يكشف عنه إلا لأشخاص معينين ، ولا يباح لغيرهم استعماله . ولم يكن تكوين الجملة أمراً هيناً ، ولكنه أولا بضم

لفظ إلى آخر ، ثم هذب ذلك ونسق ، وربطت أطراف الجملة بعضها ببعض بروابط خاصة .

واللهجة لغة جماعة أو إقليم خاص ، وكثيراً ما يختلف مدلول اللفظ الواحد من لهجة إلى أخرى ، وتؤدى الحقيقة الواحدة أحياناً بألفاظ تتعدد بتعدد العشائر والقبائل . وتسود لهجة على أخرى لأسباب سياسية أوثقافية أو اقتصادية ، فترجح لهجة الأقوى ، وتقود الوحدة الوطنية عادة إلى لغة قومية . وللثقافة شأن فى تغليب لهجة على أخرى ، ولأمرما ما سادت قديماً اللغة اليونانية فى بلاد القسم الشرقى للبحر الأبيض ، واللاتينية فى غرب أوربا ، وسادت بعد ذلك اللهجة الباريسية على كل لهجات فرنسا . وللتجارة والمعاملات دخل فى سيادة بعض الألفاظ واللهجات ، واستقرار لغة فى مكان ما يحجرها ويقعد بها عن النمو والتطور . فإذ ما انتقلت وانتشرت تغذت بغذاء خارجى ، وأضيفت إليها عناصر أخرى ، واكتسبت حياة جديدة .

* * *

والعربية أشهر اللغات السامية ، تصعد إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون . اشتملت على لهجات مختلفة أخصها لهجة قريش التى امتازت بصفائها ورقتها ، وبسطت نفوذها على اللهجات الأخرى ، وكانت عاملا من عوامل الوحدة اللغوية . وأعانها على ذلك رحلات القرشيين التجارية شتاء وصيفاً ، وما كان يقام على مقربة منهم كل عام من مهرجانات أدبية كسوق عكاظ ؛ والكعبة التى كان يحج إليها العرب فى الجاهلية سنوياً ، ويسعون إليها من كل فج سحيق .

وكانت العربية محصورة فى الجزيرة قبل الإسلام ، ثم أخذت تنتشر معه شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً ، من أواسط جبال الهند إلى جبل

طارق ، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب . ودخلت فى صراع مع ثقافات ولغات أخرى كالفارسية والهندية ، والقبطية والبربرية ، وخرجت من هذا الصراع ظافرة . أخذت من هذه الثقافات واللغات ما أخذت ، وتأثرت بها دون نزاع . ولكنها سادت عليها ، وحلّت محل بعضها بصفة نهائية ، أو لمدة غير قصيرة .

وها هى ذى اليوم تواجه صراعاً ربما كان أشد أو أعنف ، فهناك مستحدثات حضارية : علمية وفنية ، لا بد أن تؤديها ، وأن تحسن أداءها. وهناك لغات تنازعها البقاء ، بين وطنية وأجنبية ، ولا بد لها أن تقاومها وتظهر عليها . والدلائل قائمة على أنها ستحظى بنصر لا يقل عن نصر الأمس ، فهى تطرد اللغات واللهجات المزاحمة ، وتحرص على أن تعبر عن العلم والحضارة المعاصرة فى دقة ووضوح . ولا تقنع بأن تكون مجرد لغة وطنية أو قومية ، بل تأبى إلا أن تكون لغة عالمية ، لها علمها وأدبها ، يؤخذ عنها كما تأخذ عن غيرها .

* * *

ولا شك فى أن هذا يلقى على العلماء والأدباء واللغويين العرب أعباء ثقالا مستمرة ، فهم مطالبون دائماً بأن ينتجوا ، أن يعدلوا وينقحوا ، أن يهذبوا وييسروا ، أن يبتكروا ويجددوا ، أن يملئوا اللغة — فى اختصار — حياة وقوة وحركة .

٥

القياس في اللغة

لا حياة للغة بدون ابتكار ألفاظ جديدة تواجه الزمن ومستحدثات التطور . وهذا الابتكار هو ما سماه اللغويون « الوضع » . وأهم سبله الاشتقاق والقياس . ومن أخص خصائص العربية أنها لغة اشتقاقية . وفي الاشتقاق ما أكسبها مرونة ومناعة في آن واحد ، فسمح لها بخلق ألفاظ جديدة ، وحافظ على ثروتها ، وحماها من الزيغ والشطط .

واختلف من قديم في أصل الاشتقاق . هل هو المصدر أو الفعل؟ واستدل كل على رأيه ، وأغلب الظن أنه خلاف نظري لا طائل تحته . وقد وضعت للاشتقاق قيود تضيق آفاقه ، وتحدد ما يشتق ومالا يشتق منه . وكان هم مجمع اللغة العربية أن ييسر من أمره ويفك بعض قيوده ، ويشتق مما لا يشتق منه ، ويجعله في اختصار أداة طيعة في أيدي الأدباء والعلماء تمكنهم من أن يجدوا الكلمات الملائمة لأداء ما يعن لهم من معان ، وكلما نجحوا في الاشتقاق استغنوا عن العامي والأعجمي . ولم يحرص المجمع على أن يكون بصرياً أو كوفياً ، بقدر ما حرص على أن يواجه حاجات العصر ويحاول سدها . والاشتقاق في الواقع ضرب من القياس اللغوي .

* * *

واللغة في أساسها عرف واستعمال يتوارثه الخلف عن السلف ، وله

أن يجدد فيه ويضيف إليه لكى تساير لغته الزمن ، وتسد حاجات العصر . ولهذا الاستعمال ضوابط تنظمه ، وقواعد يسير على مقتضاها. وتكاد تتلخص صناعة اللغويين فى حصر هذه الضوابط ووضع هذه القواعد . وهم فى الغالب فريقان : قياسون يكثرون من الضوابط ويتلمسون القاعدة لأدنى مناسبة ، وحفاظ يؤثرون السماع ويعتدون بالرواية ، ويمكن أن يرد الخلاف بين البصريين والكوفيين فى أساسه إلى هذه التفرقة . وما دامت اللغة تسير فلا بد أن يسير القياس معها . فنى وسعنا أن نضع لها ضوابط كما وضع الأقدمون ، وأن نقعـد القواعد كما قعدوا . وقديماً قال أبو على الفارسى (٣٧٧هـ) وتلميذه ابن جنى (٣٩٢هـ) : « ما قيس على كلام العرب فهو منه » . ولا غرو فقد كانا زعيمى مدرسة القياس فى اللغة . ولقد كان أهون على أولهما أن يخطئ فى خمس روايات من أن يخطئ فى قياس واحد ، وحاول ثانيهما أن يضع للغة أصولا كأصول الفقه . ولكن ربما غلا بعض اللغويين ، وشاء أن يضيق دائرة القياس ، أو أن يسد بابه . وللاحتراف تطرف أحياناً ، وعلى رأس هؤلاء ابن فارس (٣٩٥ هـ) وهو معاصر للفارسى وابن جنى ، ويذهب إلى أنه « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه » . وكأنما ذهبت كلمته مثلا ، وأضحت دستوراً يعمل به .

حقاً إن باب القياس فى اللغة لم يغلق قط بصورة قاطعة ، ولكن انصرف الناس عنه ، واكتفوا بأن يرددوا ما قال به الأقدمون ، وبخاصة فى القرون المتأخرة . وكان على مجمع اللغة العربية أن يرد إلى القياس اعتباره ، ويستعين به على تطوير اللغة والنهوض بها ، وقد واجه هذه المشكلة منذ البداية فى مجلسه ومؤتمره ، وعرض لها فى لجانه وعلى أيدى خبرائه . استمع فيها إلى بحوث ودراسات ، وانتهت إلى أصول ومبادئ ، وقرر بوجه عام « أن يؤخذ بمبدأ القياس فى اللغة ، وأجاز الاجتهاد فيها متى توافرت شروطه » ، فلنا أن نقيس كما قاس القدماء ، وأن نشتق

ونصرّف كما اشتقوا وصرّفوا؛ ذلك لأن العربية ليست ملكاً لأحد ولا طقوساً يتعبد بها؛ وإنما هي مجرد لسان يتصرف فيه أهله في ضوء ظروفهم وحاجاتهم.

والقياس لفظي ومعنوي . ويراد بالأول وضع صيغ لأداء معان محددة ؛ كصيغ اسم الفاعل واسم المفعول ، ودعامته الاشتقاق . والعربية كما قدمنا ، لغة اشتقاقية ، وقد سمح لنا الاشتقاق بخلق ألفاظ جديدة ، وحماها من الزيغ والشطط . وتيسيراً له أجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان ؛ فيقال مَغْنط من المغناطيس وقَصْدر من القصدير كما قيل قديماً ذهب من الذهب وكبرت من الكبريت ، وكان ذلك مقصوراً على السماع . وتوسع في المصدر الصناعي ، وجعله قياساً مطرداً يكفي فيه أن تزاد ياء النسب والتاء على الكلمة . وله أمثلة كثيرة مأثورة كالجاهلية والشعوبية والقدرية والجبرية والربوبية والألوهية ، ويستعان به اليوم على أداء أسماء كثير من المذاهب والنظريات العلمية والفلسفية . وكلما أعوز الاستعمال العلمي لفظ ، يسر المجمع أمر القياس فيه ، فأجاز صيغاً للدلالة على معان خاصة مثل فُعَال للمرض ، وفَعَالة للحرفة ، وفَعَلان للتقلب والاضطراب . وقال بقياسية أفعال المطاوعة جميعاً ، وإن أنكرها بعض اللغويين إذا لم ترد في المعجمات ، وقال أيضاً بتعدية الفعل الثلاثي قياساً بالهمزة أو التضعيف ، ولم يكن مسلما به على إطلاقه .

ويراد بالقياس المعنوي إطلاق لفظ على حقيقتين مختلفتين لشبه بينهما ، فهو ضرب من المجاز اللغوي الذي يسمح باستعمال اللفظ في أكثر من معنى ، فتكون له عدة دلالات : واحدة لغوية ، والأخرى عرفية أو اصطلاحية . وقد أعان هذا التجوز على وضع مصطلحات كثيرة ، لاسيما أن لكل علم أو فن لغة تكاد تكون خاصة ، فالحكم مثلا عند الفقهاء غيره عند المناطقة ، والحال عند النحاة غيرها عند الصوفية ، وهذا ولا شك باب من أبواب الوضع ووسيلة هامة من وسائل خلق مصطلحات جديدة .

ولا شك فى أن فتح باب القياس يطوع اللغة ويملؤنا ثقة بها ، بل يزيدنا ثقة بأنفسنا: فنشعر بأنا نتصرف فيها . وليست هى التى تتحكم فينا . وأصبح علماء اللغة لايستنكرون اليوم أن من حقهم أن يجتهدوا ويقترحوا كل ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، وما أشبههم بفقهائنا الذين أعادوا النظر منذ أربعين سنة فى تشريع الأحوال الشخصية ، ولاءموا بينه وبين حاجات العصر ومقتضياته : ولا يزالون ينظرون . وقد قاس المجمع واجتهد فى الثلاثين سنة الأولى من حياته ، وانتهى إلى جملة صالحة من القرارات العلمية تزيد على المئتين ، أخرجت فى كتاب خاص . ولا بد له أن يستمر فى قياسه واجتهاده كى تسير اللغة وتتطور ، وله فى كل مؤتمر سنوى قرارات ومقترحات تمس متن اللغة وتراكيبها ، أو تتصل بنحوها وصرفها أو تعالج مشكلات إملائها وكتابتها ، وقد أخرج أخيراً كتابا فى «أصول اللغة» يعرض لقراراته فى الخمس السنوات الأخيرة . ورحم الله صاحب شرح «درة الغواص» الذى قال : «لو اقتصرنا فى الألفاظ على ما استعمله العرب العاربة والمستعربة لحجرنا الواسع ، وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم».

٦
التعريب

تأخذ اللغات واللهجات بعضها من بعض، بحكم القرابة ، أو الجوار ، أو الرحلة والانتقال . فتحمل اللغة الأم عادة شيئاً من بقايا اللغات الفرعية التي انفصلت عنها — وللغزو والفتح ، والتجارة والمعاملات ،شأن في تأثر اللغات بعضها ببعض . وتأخذ العامية من الفصحى ،وبالعكس ، وما العامية في الواقع إلا ضرب من تحريف الفصحى . وهي أفسح مجالا للأجنبي والدخيل . وهذا التبادل بين اللغات واللهجات سنة ثابتة ، تتم عن قصد وعن غير قصد . وكثيراً مايكسى اللفظ الدخيل بكساء جديد ، فينسى أصله ، ويصبح جزءاً من اللغة التي انتقل إليها ، ولا يشعر عامة أبنائها بأنه دخيل أو منقول .

* * *

ويطول بنا الحديث إن عرضنا لأمثلة من هذا التبادل بين اللغات قديمها وحديثها ، ويكفي أن نشير إلى أن العربية ، كغيرها من اللغات أخذت وأعطت قديماً وحديثاً ، فأخذت قديماً عن بعض اللغات السامية كالسريانية ، أو بعض اللغات الهندوأوربية كالفارسية واليونانية، وقد أعطت هذه جميعاً بقدر ما أخذت منها أو يزيد . وأخذت حديثاً عن الفرنسية والإنجليزيه والإيطالية ، وأعطتها ما تصرح معاجمها بأصله العربي . ولايبدو على الأوائل أنهم عارضوا هذا الأخذ أو استنكروه، ومن المعربات القديمة الدرهم والدينار ، والسندس والإستبرق ، وفي « الكتاب» لسيبويه إشارة إلى بعض المعربات ، ونص على أنها سابقة على

الإسلام . وكان العرب يلحقون تارة الألفاظ الأعجمية بأبنية العربية وأوزانها . وتارة أخرى يبقونها كما هي . وقد يطغى المعرب على العربى الأصيل، لأنه أدل على المعنى . ولكن وضع التعريب حديثاً موضع الشك، ولم يلهج الناس فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن بمسألة لغوية مثلما لهجوا با لتعريب . فأجازه قوم . وحرمه آخرون . وطبيعى أن يزداد التعريب حين يشتد اختلاط العرب بغيرهم . وحين تتعدد وسائل الأخذ والتأثر بالثقافات الأجنبية . وقد اتصل العالم العربى من جديد . منذ القرن الماضى . بالحضارة الغربية اتصالا أوثق . وبدت آثار ذلك واضحة فيما سرى إليه من ألفاظ أجنبية . لم يتقبلها بعض الأدباء واللغويين فى يسر . وقد سبق لعلماء اللغة أن نبهوا إلى ما هو مولد وما هو معرب ، وذهب فريق من المتأخرين إلى أن التعريب سماعى . وقصروه على ما ورد على ألسنة العرب الفصحاء، وزعموا أنه لايزيد على ألف كلمة . وكأنهم خشوا أن تطغى اللغات الأعجمية على الفصحى ، فمنعوا التعريب سدا للذرائع . وأبى كثير من أصحاب المعجمات تدوين الأعجمى المحدث ، وعابوا على صاحب « القاموس» نقله لكثير من أسماء النبات والحيوان والعناصر المعربة . والقائلون بالتعريب أنفسهم مختلفون فيما بينهم ، فمنهم من يرى ضرورة التزام الأوزان العربية ، ومنهم من لايلتزمها ويعرب الكلمة كما وردت فى لغتها الأصلية . وعلى رأس القائلين بعدم الالتزام سيبويه بين القدامى ، وأبو حيان والشهاب الخفاجى بين المتأخرين ، وثلاثتهم عرفوا إلى جانب العربية لغة أخرى أو أكثر .

* * *

وقد عالج مجمع اللغة العربية مشكلة التعريب منذ البداية ، ولكن فى شىء من الحيطة ، فعرضت فى دور انعقاده الأول ، وأصدر فيها قراراً لا يخلو من غموض ، ولعل ذلك راجع إلى الظروف التى كانت محيطة بهذا الموضوع حين ذاك . فقرر ما نصه : « يجيز المجمع أن يستعمل

بعض الألفاظ الأعجمية – عند الضرورة– على طريقة العرب فى تعريبهم؛ فما حد الضرورة؟ ومن هم العرب المشار إليهم ؟ أهم عرب الجاهلية وصدر الإسلام ؟ وما طريقتهم ؟ كل تلك نقط لم توضح فى شرح هذا القرار والاستشهاد له .

ولكن لم يلبث الأمر أن استقر ، وأصبح للمجمع فيه تقليد واضح. فاتفق على التعريب من حيث المبدأ كلما دعت إليه الحاجة ، ووضعت له شروط وضوابط خاصة . فقصر على أسماء العناصر والأجناس ، كالأكسجين والإليكترون ، أو بعض الأجهزة كالبارومتر والترمومتر ، أو أعلام الأشخاص والأماكن ، أو ما يدل على سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ونحوها ، أو تلك الكلمات العالمية ذات الأصل اليونانى أو اللاتينى . وأقر المجمع معربات كثيرة وحديثة فى العلوم والفنون ، وقبل ما اشتق منها من أمثال وأوصاف ، ما دام لا بد منه ، وأصبح التعريب لاينظر إليه فى توجس وخيفة، كما كان الشأن من قبل ، ولاشك فى أن اللفظ الشائع الاستعمال ، وإن يكن أعجمياً ، أولى من اللفظ الغريب المهجور ؛ مادام يؤدى المعنى فى دقة ولا يخرج على أصول اللغة.

* * *

ولم يبق شك فى أن من حق علماء اللغة أن يجتهدوا ويقترحوا ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، فهم يشتقون ويقيسون أولا ، وقد يلجئون إلى العامية ليأخذوا منها ما يسد حاجة العلم والحضارة ، ما دام يقوم على أصول عربية . فإن أعوزهم كل ذلك ، فلاضير عليهم من أن يأخذوا بالمعرب الذى تدعو إليه الضرورة . وواجب العلماء والباحثين أن يتمكنوا من لغتهم تمكناً يعينهم على تخير اللفظ الملائم لمعناه ، ولا يأخذون باللفظ الأجنبى إلا عند الضرورة .

٧

منطق أرسطو والنحو العربى

لم يصادف نحو من العناية ماصادفه النحو العربى. نشأ فى الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة ، وبقى ينمو ويتكون خلال القرون التسعة التالية . فبحث عن الرواة ورجال البادية لتؤخذ عنهم الأساليب الصحيحة والتعبيرات المستقيمة ويستشهد بنقلهم وروايتهم . وتوالت المدارس بعضها على إثر بعض ، بين بصرية وكوفية ، أو بغدادية وأندلسية ، تتلاقى أحياناً وتتعارض أخرى ، أو تتوسط ، فتسلك مسلك الجمع والتوفيق . ووضعت الرسائل الصغيرة فى بعض الموضوعات الفرعية ، كالمقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، أو الكتب الجامعة ، نثراً أو نظماً ، « كالكتاب » لسيبويه ، « والمفصل » للزمخشرى ، « والكافية » لابن الحاجب ، « والألفية » لابن مالك ، « والمغنى » لابن هشام .

وخلط النحو باللغة والأدب ، ثم فصل عنهما ليصطبغ بصبغة معينة ويعتمد على مصطلحاته الخاصة . وشرحت النصوص والشواهد ، وجمعت الشواذ والغرائب ، وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوى ونحوى ، أو بين مدرسة وأخرى . وترجم للنحاة ورتبوا طبقة بعد طبقة . وقد تشعبت الدراسات النحوية بحيث استوعبت معظم نشاط المثقفين فى القرون الستة الأخيرة . وفى اختصار يمكننا أن نقول مع دى بور : « إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة فى الملاحظة ونشاط

فى جمع ما تفرق . وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ؛ ويحق للعرب أن يفخروا به » .

وإذا قارنا النحو العربى بعلوم النحو القديمة والحديثة ، وجدنا أن أحداً منها لم يصادف ما صادفه من درس وعناية . فللإغريقية واللاتينية نحوهما . ولبعض اللغات الشرقية القديمة نحو معروف كالسريانية والعبرية . غير أنه لم يصل نحو من هذه إلى ما وصل إليه النحو العربى من عمق البحث وسعة الدراسة وتشعب الآراء . أما اللغات الحديثة فقد اختزلت — فى كثير منها — نحوها واختصرته فى أضيق الحدود الممكنة .

ولم يكن غريباً أن يعنى المسلمون بالنحو هذه العناية ؛ فهو أداة من أدوات فهم الكتاب والسنة ، ووسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينية ، وبخاصة من الموالى والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم ولا الفصحى سليقتهم . وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون : « أن من أراد الشريعة فلابد له من معرفة علوم اللسان العربى ؛ وهى أربعة : لغة ونحو وبيان وأدب ، وأهمها النحو لأنه يبين أصول المقاصد بالدلالات . ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة » .

بيد أنه لايزال فى النحو العربى جوانب غامضة ؛ أخصها ما اتصل بنشأته والعوامل التى أثرت فى تكوينه . وعندى أن هذه العوامل كثيرة ومتنوعة ، بين داخلية وخارجية ، عربية وأجنبية . وسأقصر كلمتى هذه على منطق أرسطو وأثره فى النحو العربى .

* * *

ولا شك فى أن المنطق الأرسطى قد صادف فى القرون الوسطى المسيحية والإسلامية نجاحاً لم يصادفه أى جزء آخر من فلسفة المعلم الأول ، فعرف أرسطو المنطقى قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقى ، وترجم « الأرجانون » قبل أن يترجم « كتاب الطبيعة » أو « كتاب الحيوان » . « وللأرجانون »

فى العالم العربى منزلة خاصة . فكانت أجزاؤه الأولى أول ماترجم من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ؛ ثم ألحقت بها الأجزاء الأخرى فترجمت وشرحت واختصرت . وتوالى البحث فى المنطق لدى المدارس الإسلامية المختلفة : عند الفلاسفة والمتكلمين ، وعند الفقهاء .

والغزالى فى حملته على الفلسفة والفلاسفة يضع المنطق جانباً لأنه إنما ينصب على قوانين الاستدلال العقلى بصرف النظر عن موضوعه ، ويذهب إلى أبعد من هذا مقرراً أن المنطق ليس خاصًّا بالفلاسفة وحدهم بل هو متصل أيضاً بالمتكلمين الذين يسمونه علم الجدل أو علم النظر. وقد استخدم الفقهاء كثيراً من المصطلحات المنطقية فى بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئى ، والعام والخاص . واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربعة ، ورسموا قواعده ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو فى قياسه المنطقى . ونعود مرة أخرى إلى الغزالى ، فنجده يقول فى مقدمة كتابه «معيار العلم» : «إن النظر فى الفقهيات لايباين النظر فى العقليات فى ترتيبه وشروطه وعياره». ويضيف إلى هذا أنه مادامت الهمم فى عصره متجهة نحو البحث الفقهى ، فإنه سيقدم فى هذا الكتاب المنطقى أمثلة فقهية كي يعم النفع . وفى كتاب آخر له أصولى — وهو «المستصفى» — يرى لزاماً عليه أن يقدم له بمقدمة منطقية خالصة يعتبرها ضرورية ومتممة لعلم أصول الفقه .

* * *

ولم يقف الأمر — فيما نعتقد — عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطى من جانبين : أحدهما موضوعى ، والآخر منهجى . فتأثر النحو العربى عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحدد ويوضح على نحو ما حدد القياس المنطقى .

وقد يقال : ماللنحو والمنطق ، واللغة فى أساسها عرف كثيراً ما يعصى قوانين العقل والمنطق ؟ ولكن لانزاع فى أن منطق أرسطو قد اشتمل على مبادئ نحوية : فنى « المقولات » وهو الجزء الأول من كتبه المنطقية يعرض للألفاظ . ثم يتناول فى الجزء الثانى — « كتاب العبارة » — الجمل ويفصل القول فيها ، وهذه أمور فى ظاهرها نحوية . ولم تخل كتبه المنطقية الأخرى من قواعد الأجرومية اليونانية .

ونود أن نلقى نظرة عاجلة على بعض هذه القواعد لنتبين ما يمكن أن يلحظ من شبه بينها وبين أول ما عرف من قواعد النحو العربى ، ورائدنا فى هذا « الأرجانون » من جانب « وكتاب » سيبويه من جانب آخر. فنى مقدمة « كتاب العبارة » يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل معرفاً الأول بأنه ما دل على معنى وليس الزمن جزءاً منه . ومعرفاً الثانى بأنه ما دل على معنى وعلى زمن . ثم يشير فى كتاب منطقى آخر — هو طوبيقا أو الجدل — إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة . وهنا ننتقل إلى « كتاب » سيبويه فنجده يبدأ بتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكى من بعض النواحى التعريف الأرسطى ، ومن الغريب أن ما يسميه سيبويه حرفاً يسميه الكوفيون الأداة ، وكأنهم شاءوا أن يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظاً تاماً .

وندع جانباً ما ورد على لسان أرسطو من حديث عن النوع والكم ، أو بعبارة أخرى عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع ، وما عرض له من توضيح الإثبات والنفى ، والطلب والاستفهام مما له بالنحو صلة وثيقة ، ونكتفى بأن نشير إلى مثل آخر له شأنه ، وهو أساس تكوين الجمل فعلية كانت أو اسمية ، ونعنى به الإسناد . وذلك أن أرسطو عرض بإسهاب لنظرية الإسناد فى كتابى « المقولات » و « العبارة » ، فنى الأول يحاول أن يحصر أنواع المحمولات العامة الممكنة ، وفى الثانى يوضح الصلة بين المحمول والموضوع ، ويعرف الجملة التعريف النحوى الصحيح . وهنا نعود إلى سيبويه ،

فنجده يتحدث فى « الكتاب » عن المسند والمسند إليه ، وفى مكان آخر يعقد الفصل الآتى : « المبتدأ والمبنى عليه ». وكأنه يريد أن يقول الموضوع والمحمول عليه . وواضح أن الإسناد دعامة كل نحو عربياً كان أو غير عربى .

وقد يتساءل : ما لسيبويه الفارسى أصلا العربى تربية ولمنطق أرسطو ولم يعرف له ولوع بالفلسفة والمنطق ؟ وما أحوجنا إن شئنا أن نجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة أن نعرض لشئ من تاريخ الترجمة فى الإسلام ،وأعتقد أن نشأة كثير من العلوم الإسلامية تتصل بهؤلاء المترجمين . ومن الثابت أن كتب أرسطو المنطقية الثلاثة الأولى (المقولات ، والعبارة ، وأنا لوطيقا الأولى أو التحاليل الأولى) كانت معروفة لدى السريان، وقد ترجمت إلى لغتهم قبل الإسلام ، ويقال أيضاً إنها نقلت إلى الفارسية . والمهم أنها ترجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول للقرن الثانى الهجرى، ترجمها عبد الله بن المقفع عن الفارسية أو ابنه محمد عن السريانية على خلاف فى ذلك. فهى إذن ثروة جديدة نقلت إلى العالم العربى ، ولا بد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير ، إنْ من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية ، وقد كان النحاة يحاولون — شأن كل باحث — أن يستعينوا على ما هم بصدده بما يعرفون من لغات أو دراسات أخرى .

على أن هناك عملا مشابهاً تم على مقربة من نحاة العرب الأول ، وهو وضع النحو السريانى بمدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى . ولا شك فى أن هذا النحو تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل صديق للخليل ، وقد تعلم العربية فى سن متقدمة وعانى منها ما عانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل

بعض القواعد النحوية . خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية. وأتم مع ابنه إسحق البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية .

وفى وسعنا أن نقرر بعد كل هذا أن المترجمين فى تعلمهم العربية وفيما نقلوا من كتب أجنبية قد بدءوا فى القرن الثانى للهجرة فأثاروا جواً حول المشاكل النحوية ، ولأرسطو فى هذا الجو نصيب ملحوظ . ولا يصح أن نغفل ما لهذا الجو من أثر على نحاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادى والمعنوى . ووجه الشبه بين المنطق والنحو قديم . فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ . وهذا ما أشار إليه صاحب السلم بقوله :

(وبعد) فالمنطق للجنان نسبته كالنحو للسان

ولأمر ما سمى نحاة البصرة بأهل المنطق، ولهذه التسمية ما لها من دلالة .

ولعل فى هذا ما يفسر تلك المفاجأة التى أحدثها «كتاب» سيبويه . بظهوره فى تلك الصورة الجامعة ، دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له ؛ الأمر الذى دفع صاحب « طبقات الأمم » أن يقول إنه لا يعرف كتاباً ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها ، واشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بدقائقه . غير كتب ثلاثة : « المجسطى» فى الفلك ، « والأرجانون» فى المنطق و« كتاب» سيبويه فى النحو. وفى هذه الدعوى تسامح ظاهر وجهل بالتاريخ . وإذا تركنا الفلك والمنطق جانباً . وجدنا أنه عرفت مؤلفات فى النحو العربى قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا . وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة ، التى اضطلع بها أمثال عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ولسنا فى حاجة أن نلاحظ أنه مزاج من الأدب والنحو واللغة؛ هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض التعبيرات والاستعمالات ، منه بتقنين القوانين ووضع المبادئ ، فهو لم

يقعد قطعاً قواعد النحو على الصورة التى قعدت بها فيما بعد . وقد مهد له أخيراً تلك البحوث النحوية التى نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق أرسطو ؛ ويبدو على سيبويه نفسه أنه لم يكن مغمض العينين عن أمثال تلك المؤثرات . ويكفى أن نشير إلى ذلك الفصل الذى عقده فى الجزء الثانى من الكتاب وعنوانه « باب اطراد الإبدال فى الفارسية » .

ولقد سبق لبعض المستشرقين أن أثاروا هذه النقطة . وإن كانوا لم يقفوا عندها طويلا . ونذكر من بينهم بروكلمان ودى بور وزميلنا الأستاذ ليتمان . ولا يضير النحو العربى فى شىء أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه ، أو أن يساهم منطق أرسطو فى التوجيه إليه .

وهناك ناحية أخرى من نواحى الصلة بين هذا المنطق والنحو العربى ونعنى بها تلك الناحية المنهجية التى أشرنا إليها من قبل. والتى لم توضح بعد التوضيح الكافى .

* * *

وكلنا يعلم ما للقياس من أهمية فى نشأة النحو العربى وغزارة مادته واستخلاص قواعده وضبط أحكامه . ذهب إليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم ، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التى تلتقى فيها . وتوسع فيه من جاءوا بعدهم، فجعلوه منهجاً ذا قواعد ومعالم محدودة، عدوه منبعاً رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية ، وربما حكموه فى لغات العرب ورواياتهم، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى، وإن تعبيراً ما يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع ، وكأنما يشرعون فى النحو كما شرع الفقهاء فى المعاملات . وهاهو ذا ابن جنى يقول : « إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا ، وجب أن يكون قياساً وعقلا» . ويقرر من بعده ابن الأنبارى : « أن إنكار القياس فى النحو لايتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن أنكره فقد أنكر النحو» ، ولا يعرف أحد من العلماء

بنكره . ويعزى إلى الكسائى ذلك البيت المشهور :

إنما النحو قياس يتبع وبه فى كل أمر ينتفع

وقد استخدم القياس فى النحو منذ المراحل الأولى ، فعالجه عبدالله الحضرمى المتوفى سنة ١١٧هـ ، وأخذ يقيس ويعلل الأقيسة . ونماه الخليل ابن أحمد ودعمه، وتوسع فيه سيبويه أيما توسع ، وفى « الكتاب »أقيسة عدة واعتداد بالقياس فى مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر . وقد لايقف عند استقراء الأمر الواقع ، بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاماً خاصة . وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة . فإن البصريين يعتبرون واضعى دعائم القياس فى النحو العربى . على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا فى استخدام القياس والتعويل عليه ، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة ، وبالغوا فى الأقيسة النظرية والعلل العقلية ، وهانحن أولاء نقيس حتى اليوم ، وللمجمع قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية : كالنسبة إلى جمع التكسير ، واستعمال وزن مفعلة للمكان .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة ، فإن مما يلفت النظر أن القياس النحوى نبت ونما فى العراق حيث نبت ونما القياس الفقهى . ولم يجئ ذلك عبثاً ، وإنما كان وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ، ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغى توضيحها ، ونحن نتحدث عن قياس فقهى وآخر نحوى ، ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو فى القياس الأرسطى ، ذلك لأن هذا الأخير يقوم فى أساسه على سير من الكلى إلى الجزئى ، أما قياسنا النحوى وزميله الفقهى فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئى إلى الكلى . ولكن ينبغى أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض فى لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتمثيل . وإذا كان

لم يعتد بهما كل الاعتداد ، فقد قدرلهما أن يستخدما فى البحوث والدراسات العلمية التى جاءت بعد . وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمى الحديث .

فالقياس النحوى تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد — الأمر الذى كان يبغضه نحاة البصرة — أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية . وهو على كل حال فطرى فى صورته الأولى التى تتلخص فى تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعللها . وليس لأحد أن يدعى أن هذا القدر الفطرى من صنع أرسطو أو أى فيلسوف آخر ، ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغى البحث عن عوامل هذا التحول . ولم يقف القياس النحوى عند تلك الصورة الفطرية التى أشرنا إليها ؛ بل فلسفه النحاة وافتنوا فيه إلى درجة كبيرة .

فبحثوا عن أركانه ، وقالوا كما قال الفقهاء إنها أربعة : أصل وهو المقيس عليه ، وفرع وهو المقيس ، وحكم قد يتنوع كما تتنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أو ممنوعاً أو حسناً أو قبيحاً ، وأخيراً علة وهى دعامة القياس ، ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوى الصحيح ، كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطقى . وإذ كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفى صورة مهذبة فإنا نجد منها شذرات هنا وهنالك فى « الخصائص » لابن جنى ، وفى « أصول النحو » و« الإنصاف » لابن الأنبارى ، وفى « الاقتراح فى أصول النحو » للسيوطى .

ودون أن نتتبع مبادئ القياس النحوى ، نكتفى بأن نشير إلى أمثلة منها ، فيقال : يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لا العكس ، والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على ما لا نظير له ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، والقياس على الفاسد فاسد ، وإن أجازوا القياس على ما ورد فى ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل فى هذه

الضرورة أيضاً . وفى هذه المبادئ وأمثالها ما يدل على أن نحاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولا تحاكى تلك الأصول التى وضعها الفقهاء، وأصول القياس النحوى كأصول القياس الفقهى تلتقى فى أنها ترسم خطى القياس المنطقى .

ومثل واحد من بين هذه الأصول كاف فى توضيح ذلك ، ألا وهو مبدأ العلـيّـة . وقد كان لهذا المبدأ شأن فى النحو العربى لايقل عن شأنه فى المنطق الأرسطى ، ذلك لأن العلة هى الدعامة التى يقام عليها القياس النحوى والمنطق . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفى . وإذا قلنا نظرية العامل فإنما نلخص النحو فى جملته ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل» . وقد وضع أبو على الفارسى كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه، كما وضع عبد القاهر الجرجانى كتاباً آخر اسمه « العوامل المائة» فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة، قوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها وأخرى لمشابهتها لغيرها ، فالأصل فى العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملا حيناً ومعمولا حيناً آخر ، ولايمكن أن تكونهما فى آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب، وقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل فى ثوبها الكامل، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فمن أين استمد النحاة فكرة العلل أو نظرية العامل هذه ؟

يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضى إن « النحاة يجرون عوامل النحو كالمؤثرات الحقيقية » . ويذهب فريق آخر إلى أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ، ذلك لأن القياس النحوى شبيه كل الشبه بالقياس الفقهى . يقول ابن جنى فى «خصائصه : « اعلم أن أصحابنا

انتزعوا العلل من كتاب محمد بن الحسن . جمعوها منها بالملاطفة والرفق» . ويشير الزمخشرى إلى شيء شبيه بهذا فى مقدمة « مفصله» : ويضع السيوطى كتابه « الاقتراح فى أصول النحو » على ترتيب يحاكى — فيما يرى — أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جنى يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ؛ لأنها أكثر مجاراة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أم بالعلل الفقهية ، فإن كلا الفرضين لا يحل الموقف تمام الحل . ذلك لأن علل الإعراب عرفت فى أوائل القرن الثانى للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء وإذا صدق كلام ابن جنى والزمخشرى على القرن الرابع والخامس ، فإنه ليس من السهل أن توضح به أحداث القرن الثانى . على أن فكرة العلية عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطى .

وذلك أن الفيلسوف اليونانى عرض لمبدأ العلية فى كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعنينا الآن الجانب المنطقى لهذا المبدأ . ففى «التحاليل الثانية» يشرح أرسطو العلل الأربع : المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية ، ويبين مدى استخدامها فى التعريف والبرهان ؛ فالتعريف الصحيح هو الذى يوضح مادة الشئ وصورته أو يكشف عن باعثه وغايته ؛ والقياس العلمى الدقيق هو الذى يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلا يسيراً والاستدلال واضحاً قوياً .

ولم يعمل النحاة شيئاً أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية ، كما فعل أرسطو من قبل ، فتلمسوا عللا لما قرءوا وما سمعوا ، وقاسوا عليه كل ما يشترك معه فى علته ، وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليونانى ، فلديهم علة تشبيه كبناء الاسم لمشابهته للحرف ، وإعراب المضارع لمشابهته للاسم ، وعلة استثقال كحذف واو يعد

استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ؛ أو علة تغليب مثل : وكانت من القانتين . وقد غلوا فى هذه العلل إلى حد أفقدها كثيراً من قيمتها . ومن أمثلة المتعلمين : « العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها » . وإذا كان ابن جنى والسيوطى قد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ؛ فما ذاك إلا لما أخذ عليها من ضعف ووجه إليها من نقد .

* * *

هذه هى آثار منطق أرسطو فى النحو العربى . وجه إلى بعض قواعده ، وساهم فى تكوين بنيانه ، وأعان على رسم منهجه ؛ وكان عاملا قوياً من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه ، ولكنه من ناحية أخرى أصابه - فيما يظهر - بشئ من العقم والصورية التى بلى بها المنطق الأرسطى نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالدلالات والمعانى ، وأكثر من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين ، وغلا فى القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء ، وأسرف فى التمارين غير العملية التى جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافى على « كتاب » سيبويه أو شرح أبى حيان على « التسهيل » ، يلمس أن النحاة كثيراً ما أفسدوا النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية .

وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحياناً ، فهناك علل أول وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوى كما يتراءى له . وفى باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفى باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفية غير المقبولة . وكثيراً ما ورد فى المسأله قولان أو أقوال ، واستخدمت العلة الواحدة فى إثبات الشئ وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافاً بيناً ، اختلفوا مدارس كما اختلفوا أفراداً . وجد كل فريق فى الدفاع عن رأيه والتدليل على

وجهة نظره ، واعتبرت التوجيهات النحوية ضرباً من النشاط الذهني الذى افتن فيه أيما افتنان ، فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة فى أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة . ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف فى النحو نفسه : ونظرة إلى « كتاب الإنصاف » لابن الأنبارى تكفى لتوضيح ذلك : فالبصريون والكوفيون مجمعون على رفع المبتدأ . والخلاف بينهم فى علة الرفع : هل هى الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون فى علة هذا النصب ؛ فالجمهور يراها ماتقدمه من فعل ، والجرجانى يراها الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمر لذلك فعلا خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوى هو الخلاف . ولا أظننى أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر فى هذا كله عند الخاصة والمتفرغين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث مايشاءون . أما أن يفرض على شباب المتعلمين جميعاً ، فهذا تكليف بما لاطاقة عليه ، وإجهاد فى غير طائل . ولعل هذا هو الذى دفع ابن مضاء الأندلسى إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية . ولاشك فى أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة فى إعفاء شباب المتعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لاتزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أحوجنا أن نصنفه تصنيفاً جديداً ، فنحذف منه مالا لزوم له — وما أكثره — ونستغنى عن التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ، ونراعى فيه تطور النحو فى اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل البرلمان ، قد يسر للناس كثيراً من أمر حقوق الأسرة ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التى يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

العربية بين اليوم والغد

الفصحى تراث الماضي ومجد الحاضر . بقيت على الدهر ، وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين التليد والطارف ، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى ، ولا أظنني في حاجة أن أتحدث عن العربية في ماضيها ، ولا أن أعرض لتراثها . وإنما أود أن أقف قليلا عند حاضرها ، وأن أربط يومها بغدها .

* * *

وحاضرها ولاشك زاهر ، وإن عارض في ذلك قوم وأنكره آخرون . فهي لغة العلم والأدب والخطابة والصحافة ، وإلى مدى بعيد لغة المسرح والسينما ، والإذاعة والتليفزيون ، مفرداتها في صقل وتهذيب وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر . وجملها في تنوع وتجديد ، ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة . في شعرها خيال بديع ، ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خلاب لخلجات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع . وبين الشعراء المعاصرين فحول لايقلون عن شعراء العصر العباسي الأول . وفي نثرها تحرر وانطلاق ، ولين ورقة ، وتعليل ومنطق ، وأفكار ومعان لامجرد صيغ وعبارات . وفيه أيضاً ألوان جديدة كالقصة والرواية والمقالة والبحث . وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبد الحميد وابن المقفع ، أو بالجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات .

وإنتاجها في جملته غزير ومتنوع ، قومي وإنساني . تضافرت عليه

جهود مختلفة و بيئات ثقافية متعددة فى إفريقية وآسيا، وآزرها نفر من العرب والمستعربين فى أوربا وأمريكا . ويمكن أن يقال إن أدبنا المعاصر سما إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدئ فى ترجمته والأخذ عنه . كما يأخذ هو وينقل عن غيره. وبذا صحت نبوءة الأستاذ الإمام من أن دراسة جادة طوال خمسين سنة كفيلة بأن يبلغ الأدب العربى شأو الآداب الأوربية .

على أنا نعتقد أن لغتنا لاتزال فى حاجة إلى تعهد ورعاية مستمرة ، وتجديد وتطوير . ولا ننكر أن هناك شكوى تردد من متن اللغة والنحو ، ومن تعقد المعاجم وصعوبة الرجوع إليها، ومن فن الإملاء والكتابة العربية بوجه عام ، وعدم مطابقتها للنطق أو القراءة . ولاتزال الفصحى تصطدم بالعامية ، ويقع الناس فى حيرة من أمر هذه الثنائية .

ولكن هذه الشكوى لا تخلو من غلو وإسراف ، فصدر العربية فسيح يتسع كل يوم لمصطلحات العلم ومقتضيات الحضارة . وتيسير النحو يشغلنا منذ عهد بعيد ، وقد بذلت فيه جهود متلاحقة ، وأصبحنا نؤمن بأن ملكة اللغة تكتسب خاصة بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة . وظهرت معاجم عربية حديثة فيها وضوح ويسر ، وترتيب وإحكام ، ولا بد أن تليها معاجم أخرى أكثر وضوحاً وأعظم دقة . ولانألو جهداً فى أن نيسر الإملاء والكتابة ، وقد وضعت فى ذلك مقترحات شتى ، وأخذ ببعضها . وقد سبق لمجمع اللغة العربية أن أقر مقترحات تؤدى إلى اختصار صور صندوق الطباعة اختصاراً كبيراً ، وطبقها عملياً ، وأفادت منها بعض الصحف الكبرى .

ونظرة إلى الوراء ترينا كيف ضاقت مسافة الخلف بين الفصحى والعامية ، ولغتنا الحاضرة تكاد تكون مزاجا منهما ، فيها فصاحة الأولى وجزالتها ، وسهولة الثانية وقربها من الأفهام . ولانزاع فى أن فصحى اليوم تختلف من بعض النواحى عن الفصحى القديمة ، هى فصحى جديدة خضعت

للعصر وروحه ومقتضياته . وقديماً ذهب حفنى ناصف إلى أنه فى بيئة خاصة وبضرب من المرانة والدربة يمكن القضاء على العامية فى نحو عشرين سنة : وحاول عاطف بركات أن يطبق شيئاً من ذلك فى مدرسة القضاء الشرعى .

* * *

ومهما يكن من أمر فيجب أن نعترف بأنه إذا كان فى العربية قصور فهو قصورنا : فقد استطاع أجدادنا أن يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الأنظار ، وكانت موضع تقدير وإعجاب فى الشرق والغرب . ونعتقد أن الغد كفيل بتدارك مافات ،واستكمال ما نقص. وإنا لنعول عليه كثيراً. والأشواط التى قطعناها فى توسيع متن اللغة وإفساح صدره لمستحدثات العلم والحضارة ثروة مكتسبة،وما أجدرنا أن ننميها. والخطوات التى مشيناها فى سبيل تيسير النحو على الناشئين برهنت على نفعها، وأصبحنا نؤمن بضرورتها . ولا يلائم عصرنا فى شئ أن نجعل من الإملاء مشكلة تعليمية، وكلما يسرنا رسم الحروف كسبنا زمنا : وساعدنا على نشر التعليم .

ونرقب أن تقترب ما أمكن لغة التخاطب من لغة الكتابة ، وأن تتوثق الوشائج بين الناطقين بالضاد فى مختلف الأقطار ، وأن تتضاءل الفوارق بين اللهجات ، ذلك لأنا نعيش فى عصر التعليم والثقافة الشعبية ، فى عصر الصحافة والسينما ، فى عصر الإذاعة والتليفزيون . فتكافح الأمية ، وينتشر التعليم فى مختلف البلاد العربية . ويقرأ الأطفال والشبان ويكتبون بلغة سهلة وأسلوب هين . وتنفذ العربية إلى الفصل والملعب ، والمنزل والحقل ، والمصنع والمتجر ، وتنشر الكتب الشعبية وسلاسل القراءة المبسطة ، ويطبع منها عشرات الآلاف بل مئات الآلاف ، وتتبادل الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية بين المدن والعواصم، فتوحد طرائق التعبير ، وتقدم ألواناً من الأدب الرفيع . وبيننا كتاب وأدباء ينتمون إلى العالم العربى ، بقدر ما ينتسبون إلى وطن خاص ، لهم

قراؤهم فى كل بلد عربى . وهناك صحف أسبوعية وشهرية عربية تكاد توزع فى الخارج بقدرما توزع فى الداخل .

والقلم العربى أصبح ذا رسالة أدبية ولغوية إلى جانب رسالته الفنية والاجتماعية ، وكثيراً مايحاكى أسلوب الحوار والغناء المصرى فى شمال إفريقية ، أو فى الكويت والإمارات العربية . وللإذاعة والتليفزيون شأنهما فى تقويم النطق وتقريب بعضه من بعض ، وفيهما يتلى القرآن ويرتل غير مرة من عدة محطات فى اليوم الواحد ، وهو خير مقوم للألسن. وهاتان الوسيلتان تخاطبان الأمى ، كما تخاطبان القارئ والكاتب . وتصلان إلى القرية كما ترسلان فى المدينة . وهناك أمم تحاول أن تنشر لغتها وتعلمها للناس عن طريق الإذاعة المسموعة أو المرئية ، وما أجدرنا أن نوجه إذاعتنا العربية — فيما نوجهها — إلى هذه الغاية ، لاسيما أن هناك إذاعات أجنبية تحرص على النطق والأسلوب العربى السليم أكثر مما تحرص بعض الإذاعات العربية .

ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا الآن بلغة عربية واضحة . وتدرس بها فى الجامعات والمعاهد العليا ، فضلا عن المدارس الإعدادية والثانوية . وهناك دراسات لاتزال تقدم بلغة أجنبية ، ولكنها ستلبس لامحالة الثوب الوطنى ، وستؤدى باللغة العربية . ونتوقع تبادلا أتم واتصالا أوثق بين الأدب العربى والآداب الأخرى ، وها نحن أولا نرى القصة أو الرواية تترجم اليوم إلى العربية ، ولما يمض بضعة أشهر على تأليفها فى لغتها الأصلية ، ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبى ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهداً إلى ترجمة بعض نفائسنا الأدبية المعاصرة . ولاشك فى أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقاً وتأكيداً ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كى تفتح النوافذ على مصراعيها ، ويجدد الهواء والفكر من حين لآخر .

* * *

لا أظنني أبعث بهذا آمالا عذبة وأوقظ أحلاماً لذيذة : بل أبني على واقع حي ملموس . وأنا على يقين من أنا إذا أخذنا الأمور في جد . وآمنا بعربيتنا إيماناً صادقاً . فإنا سنجعل منها أداة من أدوات التعبير لاتقل عن أية لغة من لغات الدنيا الكبرى . وإن لغة تأخذ بالقياس والاشتقاق لا يعز عليها مطلقاً أن تقدم اللفظ الملائم لكل معنى جديد .

٩

العربية بين اللغات العالمية الكبرى

للغة قداسة تستمدها من وحى السماء، أو من إجماع أهل الأرض . ومن أسباب قداستها أن تصبح لغة التقرب والعبادة . أو أن ينزل بها كتاب سماوى يهبها من قداسته ، ويضفى عليها من جلاله . ولاشك فى أنها ظاهرة تحظى بما تحظى به الظواهر الاجتماعية الأخرى من سلطان، وتنال ما تناله من اعتداد وكرامة . وهى فى مقدمة مقومات الأمم والشعوب .

ولقد اعتمدت العربية على هذين المصدرين ، فهى لغة الدين والدنيا ، والعبادة والسياسة . بها أنزل القرآن وبها حفظ ، ونشأت حوله دراسات لغوية متنوعة ، وهناك طقوس دينية لابد للمسلم أن يستخدم فيها ألفاظاً وجملا عربية كيفما كانت لغته الوطنية . ويوم أن أخذ العرب فى بسط نفوذهم ، انتشرت العربية معهم ، فكانت تدرس فى أصبهان وشيراز ، كما كانت تدرس فى دمشق وبغداد . وظهر كتاب وشعراء بالعربية فى قرطبة والحمراء ؛ كما ظهروا فى القاهرة والقيروان . وأضحت لغة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ من أواسط الهند شرقاً إلى جبل طارق غرباً ؛ ومن البحر الأسود شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً . وكانت لغة عالمية قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية ، ويحددوا معالمها .

* * *

إن فكرة اللغة العالمية تصعد إلى القرن السابع عشر ، تنبه إليها ليبنتز بوجه خاص ، بعد أن رأى أن لغة العلم أخذت تتبلبل بتعدد

اللغات الأوربية الحديثة . وقد كان الفلاسفة والعلماء الغربيون يلتقون من قبل عند اللاتينية . ففكر فى جمع « ألف باء» الفكر الإنسانى ، وحصر الأفكار البسيطة والمركبة . وإذا ما تم له ذلك ، وضع لكل فكرة رمزاً يعبر عنها ويدل عليها .

ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز ، تصبح لغتهم المشتركة التى يتفاهمون بها ، ويلتقون عندها . وإذا كان لم يقدر له أن يكون هذه اللغة المنشودة ، فإنه وجه النظر إلى فكرة اللغة العالمية التى شغل بها كثيرون من بعده .

وقد عنى بها عدد غير قليل من الباحثين فى القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم طبيب روسى اقترح لغة « الإسبرنتو » التى قدر لها أن تصادف نجاحاً لدى كثير من الهيئات العلمية . ولاتزال جمعيات لغوية وفيلولوجية تعالج مشكلة اللغة العالمية ، وتدلى فيها بمقترحات ظهر منها فى النصف الأول من هذا القرن ما يزيد على خمسين مقترحاً . ويلحظ فى اللغة العالمية بوجه عام أن تقوم على أبجدية قليلة الحروف ما أمكن ، ومفردات محدودة تفى بالغرض دون تكرار أو ترادف ، ونحو مطرد ميسر ، وهجاء سهل وكتابة واضحة ، وكأنى بالفكرة تلائم بعض اللغات الخاصة كلغة المنطق أو لغة الرياضة . أما أن تطبق فى المجتمعات الفسيحة فهذا ما لاسبيل إليه ؛ لأن لغة الجماهير لاتصنع صنعاً ولاتفرض فرضاً ، ولابد لهذه الجماهير أن تضع لغتها بنفسها ، وأن تتصرف على حسب ظروفها وحاجاتها .

* * *

ومهما يكن من أمر فهناك لغات يتخاطب بها عدة دول ، ويتفاهم بواسطتها عدة شعوب ، وهى أشبه ما تكون باللغة العالمية . وقد قضت الفرنسية نحو قرنين أو يزيد وهى لغة السياسة والدبلوماسية فى العالم بأسره ، وتعد الإنجليزية اليوم لغة المال والأعمال بوجه عام . وسبق لنا

أن أشرنا إلى أن العربية كانت لغة عالمية منذ عهد بعيد ؛ وفى وسعها الآن ألاتقف عند العالم العربى . وأن تمتد إلى بيئات ومجتمعات أخرى فى آسيا وإفريقيا . ونذكر أن الباكستان — فى بدء استقلالها — اتجهت نحو العربية ، وودت أن تصبح لغتها الوطنية ، ولو قدرلها أن تسير فى هذا الطريق لحققت فى العشرين سنة الماضية خطوات يعتد بها . وبين الأردية — لغتها السائدة — والعربية وشائج قديمة . ونعتقد أن أندونسيا ترحب بنشر العربية فى ربوعها ، لو يسر لها ذلك . وفى إفريقيا مشاكل لغوية معقدة ، وكم يسعى اليونسكو وراء حلها ؛ ويسلم بأن للعربية شأناً فى هذا الحل . فهناك دول إفريقية حديثة فى بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة ، وفى وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات ؛ برغم النزعة الأنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية التى تصادف بعض الأنصار والمؤيدين . وقد استطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب إفريقيا وقبائلها ؛ وهى لغة تربطها بالعربية صلات معروفة .

° ° °

ولاسبيل لانتشار لغة إلا إذا كان فى طبيعتها ما يعين على ذلك . وأبجدية العربية محدودة الحروف ، وهى لا تزيد عن أبجدية الإسبرنتو ؛ وأصواتها تكاد تكون شاملة ، ومفرداتها غزيرة ، ولكن كثيراً ما يختلط فيها المهمل بالمستعمل والغريب بالمألوف . وليس بعزيز أن يختار قدر منها يلائم مطالب الحياة الحاضرة ، ويضمن فى معاجم خاصة ، ونحن نعلم أن الألفاظ المتداولة فى حديث فرد وكتابته أقل كثيراً من مادته اللغوية . ولاشك أن معجمات كهذه تيسر تعلم العربية على الأجانب ، وتساعد على نشرها فى بيئات لاعهد لها بها . ويؤم جامعاتنا اليوم فى مصر وبغداد عدد غير قليل من طلاب العلم الذين ليسوا من أصل عربى ، وواجبنا أن نيسر مهمتهم ، ونطوع لغتنا لهم . وقد بدلت فى ربع القرن

الماضى جهود لوضع معجمات عربية مختصرة . تقف عند الكلمات الكثيرة الورود والذائعة الاستعمال . وأسهم المستشرقون فى ذلك بنصيب . إلا أنا لانزال دون الغاية . ولم نصل بعد إلى معجم ملائم تماماً لنشر العربية .

وفى نحو العربية فلسفة وتوسع زائد . وعمق إن لاءم الخاصة فإنه لايلائم العامة . ويمكن أن يتخير من قواعده المطرد الذى تبدو آثاره واضحة . ويسهل حفظه وتلقينه. ولنا فى هذا محاولات متصلة منذ أوائل هذا القرن . بدأها حفنى ناصف . وتابعها على الجارم وتلاميذه . ويمكن أن يستخلص منها ما يتمشى مع عالمية اللغة . وفى الإنجليزية محاولات مشابهة يسرت نحوها وجعلته من الدروس الهينة . ويمكننا أن نقرر أنه لاتوجد فى الإنجليزية اليوم صعوبة تدريس الأجرومية التى يضيق بها المعلمون والمتعلمون أحياناً .

ولم يبق إلا مشكلة الكتابة . وهى بدورها تساير الزمن وتتطور معه فيسرنا كثيراً من أمر الهجاء والإملاء . وما أجدرنا أن نتابع هذا التيسير . على أن أخطاء الإملاء فقدت كثيراً من خطرها . وأصبحت بحيث لاينظر إليها نظرة الماضى القاسية . ونحن نقرأ اليوم أكثر مما نكتب . فإذا ما وجدنا صورة المقروء سهل فهمه وتتبعه . وحروف الطباعة ذات شأن فى تيسير الكتابة العربية . وينبغى أن تكون ذات شكل ثابت وواضح . وإنا لنلحظ تطورها فى الثلاثين سنة الأخيرة . وكان لمجمع اللغة العربية نصيب فى هذا التطور .

* * *

وكل تلك أمور أقرب إلى المنهج والطريقة . وألصق بالبيداجوجيا ووسائل الإيضاح والتعليم ، ولايضير اللغة فى شئ أن نأخذبها ، وما أجدرنا أن نفعل ، إن أردنا أن تستعيد العربية مكانتها التى حظيت بها فى الماضى ، وأن تؤدى رسالتها كاملة بين اللغات العالمية الكبرى .

الباب الثانى

فى المصطلح العلمى

١

لغة العلم

أداة البحث ، ووسيلة الشرح ، ولاحياة لعلم بدونها ، يلتقى عندها العلماء ويعول عليها الطلاب ، وعلى أساسها يقوم التأليف والنشر . تسير . بسير العلم ، وتقف بوقوفه . وهى لغة الوضوح والدقة ، والبيان والسرعة . يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتباينت وتحددت. يبدأ المصطلح هزيلا متردداً ، ثم لايلبث أن يقوى ويستقر ،وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها .

* * *

ولو رجعنا إلى تاريخ العلم اليونانى لوجدنا أن لغته بدأت تتكون معه منذ القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أخذت تنمو وتتضح فى القرنين الخامس والرابع . فغذاها فيثاغورس برياضياته وأمدها أبقراط بطبه ، وأقام أرسطو دعائم لغة العلوم الطبيعية . وللعلوم الفلسفية والإنسانية لغتها ومصطلحاتها التى ساهم فيها أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور . وقد انتقل قدر غير قليل من لغة العلم اليونانية إلى الثقافات اللاتينية والسريانية والعربية ، ولا تزال بعض آثارها باقية إلى اليوم فى اللغات الأوربية الحديثة .

ولم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها . فبدأت العلوم منذ القرن الأول للهجرة فى تكوين لغتها ، وظهرت مصطلحات فى الفقه والتفسير والكلام ، وتلتها أخرى فى الأخلاق والسياسة ، والطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة . وخضع المصطلح العربى القديم لسنة النشوء والارتقاء ، فنما وتطور على مر الزمن . وعول واضعوه

على النقل والاشتقاق. ولم يبالوا بأن يكون عربياً أصيلا أو معرباً دخيلا. وربما آثروا المعرب إذا كان أدخل فى المعنى وأكمل فى الأداء. وكثيراً ما يحمل التعريب شارة الأصل الذى نقل عنه، فنلحظ الألفاظ الفارسية فى مستحدثات الإدارة والحضارة، واليونانية والسريانية فى العلوم الفلسفية والطبيعية. وإذا ما لوحظ أن مصطلحاً لا يؤدى معناه أداء كاملا، عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط.

وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم فى الإسلام، واستقرت مصطلحاتها بحيث تنوسى معناها الأول، ولا يكاد يفهم منها إلا مدلولها العلمى الخاص. وتداولها الباحثون فى المشرق والمغرب، ولم تختلف من قطر إلى قطر؛ فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان، والفسطاط ودمشق، وبغداد وأصفهان. وبدئ بتسجيلها فى معجمات خاصة تحت اسم «مفردات» أو «تعريفات»؛ ومن أوائلها «مفاتيح العلوم» للخوارزمى الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع. ومن المصطلحات العربية ما نقل إلى الفارسية والتركية، ومنها ما سرى إلى اللاتينية، بل إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية.

ويوم أن ركد البحث العلمى فى الإسلام، ركدت لغته معه، فجمدت المصطلحات وأضحت ولا تجديد فيها ولا ابتكار. وكان هم الخلف أن يردد ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف؛ وأصبحت اللغة العلمية ركيكة معقدة. ثم جاءت النهضة العلمية العربية الحديثة فى القرن الماضى على فترة من البحث والدرس، وحاولت أن تتدارك بعض ما فات. ولكن رجالها الأول — فيما يظهر — لم يكونوا على علم بماضيهم، ولا على صلة وثيقة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة. فلم يفيدوا كثيراً من هذا التراث؛ وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل أو خطأ.

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص، ويصلحوا هذا الخطأ. وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر،

ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية فى نمو مطرد ، وتجديد لاينقطع ، ولها فى اللغات الأوربية معجمات خاصة تزاد وتستكمل عاماً بعد عام .

ونستطيع أن نقرر أن العلوم العربية الحديثة قد خطت فى نصف القرن الأخير خطوات فسيحة . أحيت بها مجد الماضي ، وتابعت سير الزمن . وأخذت تكوّن من جديد لغتها الخاصة مستعينة بالدراسات الجامعية من جانب ، وبالمجامع اللغوية والعلمية من جانب آخر .

* * *

وللعالم أن يختار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية ، وحقه فى وضع مصطلحاته لايصح أن ينازع ، وحريته ينبغى أن تكون مكفولة . ولكن هذا الحق ليس على إطلاقه ، وهذه الحرية لاتخلو من قيود. وقد يشكو العلماء من قصور اللغة عن أداء ما يريدون ، فيلجئون إلى الرمز والإشارات : كما صنعوا فى الرياضة والكيمياء . وللغويين شكواهم من تهجم العلماء على اللغة ، فيشتقون على غير قاعدة ، وينحتون فى غير ما داع ، ويسرفون فى التعريب واستعمال الألفاظ الدخيلة . وما أجدر الطرفين أن يلتقيا عند كلمة سواء .

فعلى العلماء أن يحيوا أولا كل ما يمكن إحياؤه من المصطلحات القديمة ، فإن لم يجدوا فعليهم أن يقيسوا و يشتقوا من العربية . ولم يبق محل للتشكك فيما ترخص فيه اللغويون من جواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط كما قال العرب قديماً مذهب ومفضض ، ولا للتشكك فى قياسية المصدر الصناعى فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية . ولنا أن نقيس فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، فنستحدث أوزاناً جديدة لاسم الآلة ، أو للدلالة على الحرفة أو الداء ، ونجيز النسب إلى جمع التكسير كأحيائى ، وكان يقصر فى الماضى على المفرد . وكل تلك أمور أقرها مجمع اللغة العربية منذ ربع قرن أو يزيد . وإن

لغة تيسر القياس والاشتقاق على نحو العربية ، لايعز عليها أن تجد من الألفاظ ما تدعو الحاجة إليه .

وفى العامية قدر غير قليل يرجع إلى أصل فصيح ، وفى وسع العالم أن يفيد منه لوضع مصطلحه ، وبذا يرد إلى الفصحى ما أخذ عنها . فإن لم تسد العامية ولا الفصحى حاجته ، فله أن يلجأ إلى التعريب . وقد عرب العرب قديماً فأخذوا عن اليونانية والهندية والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وعرب المحدثون عن الإسبانية والإيطالية، والإنجليزية والفرنسية . غير أنه يجدر بنا أن نقف بالتعريب عند أضيق الحدود الممكنة، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وهيدروجين ، أو ما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان ، أو على سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ، أو ما نسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان . أما ما وراء ذلك من الألفاظ المأخوذة من اللغة الدارجة فالأولى به أن يترجم . ويحتفظ فى التعريب بالأصل ، مع تقريبه من النطق العربى ما أمكن ، ويحسن أن يضبط المصطلح المعرب تيسيراً لنطقه ، إلى أن يدخل فى صلب اللغة ويصبح جزءاً منها .

وقيمة المصطلح فى انتشاره والأخذ به ، وبذا يصبح جزءاً من اللغة العلمية . أما أن يختلف من باحث إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، فإنه يبقى عملة غير متداولة ، ولا يجدى فى تعاون العلماء وتفاهمهم ، وكم من مصطلحات ولدت ، ثم لم تلبث أن ماتت . وتوحيد المصطلح العلمى ليس مما يلزم به قانون ، أو تفرضه سلطة قاهرة . وسبيله الطبيعى إنما هو الكتابة والتأليف ونشر المصطلحات لكى تذاع وتعرف . وينبغى أن يلتقى العلماء من حين لآخر فى مؤتمرات منظمة ، أو فى لجان أو مجالس ، ليتبادلوا الرأى فى لغتهم ، ويتداركوا ما فيها من قصور أو خلل .

ولقد كان لليونان لغة علمية مسلمة ، ومن بعدهم الرومان ، وبقيت اللاتينية لغة العلم وحدها فى أوربا طوال القرون الوسطى . وأشرنا من قبل

إلى أنه كانت هناك لغة موحدة للعلم فى العالم العربى شرقاً وغرباً. ويوم أن اضطربت الألسن فى أوربا ، وأحس ليبنتز فى القرن السابع عشر بانكماش اللاتينية ، شاء أن يحل محلها لغة علمية عالمية،وأساسها حصر الأفكار الإنسانية ووضع رمز لكل واحدة منها . وإذا كان لم ينجح فى محاولته ، فإنه وجه النظر إلى اللغة العالمية التى لاتزال مطمح كثيرين — وفى وسع العربية على كل حال أن تكون اليوم ، كما كانت بالأمس ، لغة علمية مشتركة بين أبناء العرب على السواء ، مهما تباعدت أوطانهم وتنوعت لهجاتهم .

ولغة العلم وثيقة الصلة بلغة الأدب ، تتعاونان وتتفاعلان ، ولاتكاد توجد نهضة أدبية إلا وتصاحبها نهضة علمية ، وكم من علماء وفلاسفة هم فى الوقت نفسه أدباء. ويوم أن ازدهر العلم اليونانى ، ازدهر معه الأدب ، ووجدنا فى أثينا إبان القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد حركة علمية وأدبية زاهرة ، وأفلاطون بين اليونان رمز للأدب الرفيع والفلسفة السامية . وفى القرن التاسع والعاشر الميلادى ، اقترنت فى بغداد النهضة الأدبية بالنهضة العلمية ، ورأينا أئمة فى العلم والأدب معاً ، أمثال النظام والجاحظ . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وصل الأدب إلى قمته ، واتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، وبسكال مثلا رياضى وأديب فى آن واحد . وأدب اليوم ذو طابع علمى واضح ، ويحرص العلم بدوره على أن يعرض فى ثوب أدبى قشيب ، ويكفى أن نشير إلى برجسون شيخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة الذى يعد بين كبار الأدباء .

* * *

وفى العالم العربى نهضة أدبية وعلمية لاشك فيها ، وقد بدأت تؤتى أكلها . وسيؤدى العلم فيها رسالته ، ويسهم فى كشف المجهول إلى جانب الجهود التى تبذل شرقاً وغرباً . وعلينا أن نوفر له كل وسائله ، وفى مقدمتها لغة واضحة حية متحركة .

٢

مدى حق العلماء فى التصرف فى اللغة

دون أن نعرض لخصائص البحث العلمى المختلفة نكتفى بأن نشير إلى ثلاث منها رئيسة ، وهى : موضوع محدد يراد بحثه ، وطريقة واضحة يعالج بها ، ونتيجة ينتهى إليها . فلا يسمو بحث إلى مرتبة العلم إلا إذا انصب على مسائل معينة ، والدراسات غير المحدودة الموضوع ليست من العلم فى شئ . وهكذا كان شأن الدراسات الإنسانية فى بدايتها : اختلطت فيها مسائل متنوعة وموضوعات مختلفة . ونشأة العلم وتكونه يتلخص فى تحديد موضوعه وحصر مسائله . والمتتبع لتاريخ العلوم يدرك هذا التطور بوضوح .

والموضوع المحدود ينبغى أن يعالج على نحو خاص ، وهذا النحو هو ما يسمى الطريقة أو المنهج . والمناهج العلمية بوجه عام استقرائية ينتقل فيها من الجزئى إلى الكلى ، وقياسية تسير من الكلى إلى الجزئى ، ومن هنا كانت العلوم ضربين : علوم استقرائية دعامتها المشاهدة والتجربة كالطبيعة والكيمياء ، وأخرى قياسية تقوم على طائفة من المبادئ والفروض المسلّمة كالحساب والهندسة . وإلى جانب هذه المناهج العامة هناك مناهج خاصة ، فالعلوم التجريبية وإن التقت كلها فى المنهج الاستقرائى يتميز كل واحد منها بمنهجه الخاص ، فلعلم الحيوان منهج يميزه عن علم النبات وهكذا .

وأخيراً من الموضوع المحدد وبالمنهج الخاص ينتهى البحث إلى طائفة من النتائج هى ثمرة العلم وغايته . وكلما كانت هذه النتائج أعم وأشمل كان البحث أدق وأكمل . والعلوم الكاملة هى تلك التى انتهت إلى طائفة من القواعد العامة والقضايا الكلية التى تصدق اليوم صدقها بالأمس

وفى الغد . وهذه هى القوانين العلمية التى من أخص خصائصها العموم والشمول . وإذا كان العلم قد حارب الخرافة والعرافة من ناحية فإنه فتح من ناحية أخرى باباً يبيح للعالم أن يتوقع ويتنبأ فى ضوء قوانينه التى تسمو على الزمان والمكان .

* * *

ولا شك فى أن المصطلحات العلمية جزء وجزء هام من المنهج العلمى ، ولن يستقيم منهج إلا إن قام على مصطلحات خاصة يؤدى بها العالم الحقائق التى يعالجها ، وقديماً قالوا : العلم لغة أحكم وضعها .

فالمصطلحات العلمية ضرورة من ضرورات العلم لأنهاتستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، وإذا كانت اللغة أداة من الأدوات البشرية المتقنة التى تربط بنى البشر بعضهم ببعض ربطاً سريعاً وثيقاً ، فإن هذا يبدو أوضح ما يبدو فى اللغة العلمية ،ويكفى حرفان متصلان، مثل « يد» ـ و« كم » ليستحضر العلماء حقائق ونظريات واسعة طويلة ، قد يطول شرحها لوحاولوا معرفة مدلولاتها ، ويوفر عليهم ذلك أن يتخيروا لفظاً معيناً هو المصطلح العلمى .

وكلما كان المصطلح دقيقاً محكماً كانت الصلة بين العلماء أوثق وأقرب ، وكان مجال الخلاف أقل ، ولذلك يقول ليبنتز : « إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها » ، ويوم يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافات الخلف كثيراً . وليست قيمة المصطلح العلمى بمقصورة على العلماء وحدهم ، بل تتعداهم إلى المتعلمين ، فإن المصطلح العلمى وسيلة من يريدون التعلم ، فيستعان به على تقديم الأفكار للمتعلمين . وإذا كان هذا شأن المتعلمين فإنه أولى بمن يرغبون فى دراسة علمية معينة ، إذ يعز عليهم تتبع هذه الدراسات إلا إذا ألموا ــ ولو بقدرما ــ بما اصطلح عليه العلماء أنفسهم فى لغتهم .

ولعل هذا هو السبب فى تلك النزعة العامة التى تدفع بعض العلماء

المتخصصين اليوم أن يقدموا العلم فى لغة بسطت فيها هذه المصطلحات ما أمكن ، كى يجد المثقف العادى سبيلا إليه . وعلى هذا النحو جاءت « السلطة العلمية »[1]. التى اضطلع بها عالم فاضل ومجمعى قديم .

وواضح أن المصطلحات العلمية تنمو بنمو العلم : تبدأ ــ أولا ــ محدودة ومترددة ، إذ يوضع لفظ لمعنى ما ، ولا يلبث أن يعدل عنه إلى لفظ آخر ، ومع الزمن ومع نمو العلم واكتماله أخذت هذه الاصطلاحات فى التنوع والتعدد والاستقرار . وتاريخ العلوم تاريخ لمصطلحاتها ، والمتتبع لتاريخها يلحظ هذا التطور فى المصطلحات وحلولها محل أخرى ثم توسعها بعد ذلك .

* * *

إذا كانت المصطلحات لغة العلماء فلا ننسى أن هذه اللغة جزء من اللغة العامة ، ومن هنا كانت المصطلحات وثيقة الصلة باللغة . وهناك خلاف مشهور حول صلة اللغة بالمجتمع ، أو صلتها بالتفكير الفردى . ففريق يقول : إن اللغة مجرد آراء وأفكار أو عواطف ووجدانات ، وفريق آخر يرى أنها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتخضع لحكمه ، وليس العامل الجوهرى فيها تلك العواطف والوجدانات ، وإنما هو المجتمع وسلطانه وحكمه وقيوده وتقاليده .

وأظننا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا إن اللغة فى حقيقتها تعبير عن أفكار وآراء أو انفعالات ووجدانات بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها ، فاللغة صنيع الفرد والمجتمع معاً ، ولا قيمة لأصوات لا دلالة لها ، وقيمة هذه الدلالة فى أن يفهمها مستمعو هذه الأصوات ويتفقوا عليها .

وإذاما تركنا اللغةالوجدانية والعاطفيةجانباً . وعرضنا لناحيةعلاقةالفكر

---

(١) اسم كتاب فيه مقالات علمية مبسطة ، كتبها الدكتور أحمد زكى .

باللغة ، وهى وثيقة الصلة بالبحث والدراسة والعلم ، وجدنا أن التفكير لايكاد ينفصل عن اللغة ، ولاسيا إذا صعد إلى درجاته العليا وأضحى ما يسمونه التفكير المنطقى ، ولذا قيل : التفكير كلام نفسى ، وقال الشاعر العربى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فعلاقة الفكر باللغة وثيقة ، والمفكر نفسه يعز عليه أن يطمئن إلى فكرته إلا إن وجد اللفظ الذى يؤديها أداء يريحه . وكثيراً ما بقيت الفكرة حائرة لأن صاحبها لم يجد بعد الوعاء اللفظى المناسب لها ، وقد نلجأ إلى أيدينا فنشير بها وإلى رؤوسنا فنحركها حين نحس بأن الألفاظ لا تعبر تماماً عما نريد .

والمعنى الدقيق يحتاج عادة إلى لفظ دقيق ، ولولا تجدد المعانى ما تجددت الألفاظ ولاتباينت التراكيب . وازدهار الآداب المختلفة مقترن عادة بازدهار العلوم ، فنى « أثينا » فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد . ازدهرت اللغة اليونانية يوم أن ازدهرت العلوم اليونانية ، وفى بغداد فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كان الأدب العباسى متشعباً ذا ألوان عدة وصور مختلفة ، لأنه كان هناك علم ودرس واسع متشعب متعدد : وأخيراً فى باريس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وصل الأدب الفرنسى إلى قمته يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، ولايزال الأدب الفرنسى سائراً فى طريقه لأن باب البحث العلمى مستمر فى سيره إلى اليوم .

ويقولون : إن الجماعات البدائية لاتعرف كثيراً عن الألفاظ التى تؤدى المعانى الكلية أو المجردة . وما زال إلى الآن عالمها أقرب إلى المحسوسات ، ولذا اقتصرت ألفاظها تقريباً على الدلالة على جزئيات . وباختصار ، اللغة مدلول ودال ، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر ، والمدلول الذى لا لفظ يدل عليه سر خفى كامن فى صدر صاحبه ، والدال الذى

لايحمل فى أثنائه معنى . صوت فارغ ولاقيمة له . وتبادل العلوم والأفكار بين الناس لايتم لو لم تكن هناك ألفاظ يؤدونها بها . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى المختلفة ، واللغة الحية هى تلك التى تجارى العصر وتقدم لكل معنى جديد وسائل الدلالة عليه .

قد يلجأ العلماء إلى وسائل أخرى للتعبير عن أفكارهم ، ولكن هذه الوسائل نفسها لغة ، فالرموز والأرقام التى يستعملها العالم لغة . وإن تكن لغة خاصة به . ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون أن يربطوها باللغة العامة ، ولا يلجأ العلماء عادة إلى هذه الوسائل إلا رغبة فى التحديد والاختصار وأداء المعنى العلمى على أدق الوجوه وأسرعها ، ومن هناك كانت رموز الجبر والكيمياء والهندسة ، إلا أن هذه الرموز قد اشتقت من اللغة العادية .

° ° °

والعالم ، وهو الباحث عن الفكرة ، لابد له أن يبحث أيضاً عن الوعاء الذى يؤديها فيه . وإذا كنا ندعو إلى حرية الفكر والبحث العلمى ، فمن مستلزمات ذلك أن ندعو أيضاً إلى حرية التعبير عن هذا الفكر ، فيكون العالم حراً طليقاً فى أداء المعنى على النحو الذى يروقه ولا يستطيع أحد أن يعبر عنه تعبيراً أصدق منه ، وإذا كان عنوان بحثنا «مدى حق العلماء فى وضع المصطلحات العلمية » ، فإنه ينبغى أن نتفق على أن هذا الحق فى أساسه مطلق ، والعالم حر فى اختيار اللفظ الذى يؤدى المعنى المراد .

والذى حدث فعلا قديماً وحديثاً هو أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها ، بل قدموا لنا ما استطاعوا وسائل التعبير عنها . وقد لايجد المخترع الأول اللفظ الملائم ، فيأتى تلاميذه من بعده ويتداركون ما فاته . وهكذا يسير العلماء الواحد منهم تلو الآخر فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبرة عنها . وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر ما هو تطور لآرائه

ونظرياته . وفى تاريخ العلوم ما يوضح هذا التطور تمام التوضيح .

وكثيراً ما شكا العلماء من قصور الألفاظ عن أداء الحقائق العلمية ؛ فقد تعجز عن أدائها أو تؤديها على وجه غير دقيق . ولذا لجئوا إلى الرموز كما صنع الكيميائيون والمناطقة فى المنطق الرياضى (اللوجستيك) . وذهب «ليبنتز» إلى أنه يمكن أن تحصر الأفكار جميعاً فيما يسميه «ألف باء» الفكر الإنسانى ، ثم يوضع لكل فكرة رمز خاص ، وبذا تتكون اللغة العالمية . وليس بغريب أن يقول ليبنتز بهذا ، وقد عاش فى بيئة كانت اللاتينية فيها لغة العلماء .

ومحاولته هذه دون نزاع أساس لكل المحاولات التالية التى ترمى إلى تكوين لغة تجتمع عليها الإنسانية كالإسبرنتو . ولست أدرى أممكن هذ أم لا ، لأن الأفكار الإنسانية أشبه ما تكون بنهر جار يتجدد ماؤه فى كل لحظة ودون انقطاع ، ولا سبيل إلى حصرها هذا الحصر المنشود .

ومهما يكن من أمر هذه المحاولة التى لاتخلو من خيال وجرأة فإن المصطلحات العلمية كانت ولاتزال وثيقة الصلة باللغة التى وضعت فيها . ولكل علم مصطلحاته بل لكل مدرسة وكل عالم ، الأمر الذى دفع إلى وضع المعاجم فى مصطلحات العلوم المختلفة . ودون أن أعرض لأمثلة من المعاجم الأجنبية أكتفى بأن أشير إلى معاجمنا العربية القديمة «كمفاتيح العلوم» للخوارزمى ، «وتعريفات الجرجانى» ، «وكشاف اصطلاحات العلوم» للتهانوى .

ولا أخفى عليكم أن متن اللغة عزيز دائماً على اللغويين ، فيغفرون خطأ نحوياً ويتسامحون فى أسلوب غير صاف ، أما أن يستعمل لفظ دخيل فهذا مالا يقبل بحال ، وكم ثاروا من أجل ذلك وبالغوا فى الثورة أحياناً . غير أن مبدأ الحرية العلمية الذى قررناه من قبل يحملنا على أن نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة فى سبيل البحث والتقدم العلمى .

ومن حسن حظ الباحثين أن اللغات فصائل ، ومن الممكن أن يعاون

أفراد الفصيلة الواحدة بعضها بعضاً. فاللغات الأوربية التى ترجع إلى اللاتينية تستطيع أن تستعين بها فيما تحتاج إلى وضعه من ألفاظ جديدة، بل باليونانية أيضاً التى غذت اللاتينية من قبل. وكلنا يعرف الصدور والكواسع اليونانية وما أعانت عليه من وضع مصطلحات علمية فى اللغات الأوربية.

ولم يفت المعنيين بالمصطلحات العلمية فى الإسلام أن يستعيروا من اللغات السامية كالسريانية والعبرية ألفاظاً يؤدون بها المعانى الجديدة. والمعنى المنقول يحمل معه أحياناً اللفظ الذى كان يؤدى به فى الأصل المنقول عنه. ولعل هذا ما يفسر الألفاظ الفارسية التى أخذ بها المسلمون فى النواحى الإدارية ونظم الدواوين وبعض مظاهر الحضارة، ومايفسر أيضاً شيوع الألفاظ اليونانية فى الفلسفة والعلوم الإسلامية. وفى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ما يوضح ذلك تمام التوضيح.

والعالم وقد تحرر — وينبغى أن يكون كذلك — يستمد مصطلحاته من الفصحى كما يستمدها من اللغة الدارجة. وفى أخذه عن الفصحى يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز، فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها فى دلالة علمية خاصة. وكل تلك وسائل لجأ إليها علماء الإسلام إبان ازدهار العلم واللغة. وله أيضاً أن يأخذ عن اللغة العامية، إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل، ولست فى حاجة أن أشير إلى أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة، وأن معاجمنا اللغوية لم تستوعب المفردات العربية، وربما كان الفارق بين العامية والفصحى مجرد اللهجة ونطق الحروف.

والمفردات العامية التى لاترجع إلى أصل عربى أولى من غيرها فى الاستعارة، لأنها أقامت بيننا زمناً وألفنا استعمالها طويلا. وللعالم أن يأخذ أيضاً عن لغة أجنبية فيعرب إن دعا الأمر إلى التعريب. وقد عربت ألفاظ أعجمية فى الجاهلية والإسلام، ولم ير العرب أى غضاضة فى أن يضموها إلى ألفاظهم. وليس بلازم أن يكون التعريب على أبنية

العرب ، وقد عربت فعلا ألفاظ على نحو ما كانت تنطق به فى اللغة الأصلية . والعلم وهو تراث الإنسانية جمعاء يجب أن يفسح مجال التبادل فيه ، وأن تيسر سبله . ومن وسائل التيسير أن يسمح بتبادل الألفاظ كما تتبادل الأفكار والمعانى .

وللعالم أخيراً أن يخترع بعض الألفاظ اختراعاً ويخلقها خلقاً ، فيبتكر اللفظ كما يبتكر المعنى أو الحقيقة التى يكشفها بتجربته وملاحظته. والألفاظ الجديدة غريبة وغير مألوفة ، ولكن الزمن كفيل باستساغتها ، وسينتهى بها الأمر متى استقرت بأن تضاف إلى الثروة اللغوية .

* * *

فى كل هذا ما يكفل حق حرية البحث المقدسة ، ولكن ليس ثمة حق إلا ويقابله واجب . والحرية الصحيحة هى التى تعرف لنفسها حدوداً تقف عندها دون أن يعدو عليها عاد أو يرغمها أحد ، ولذا ينبغى أن تقيد حرية العالم فى وضع المصطلحات بقيود أخصها :

(ا) الحرص ما أمكن على أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد . لأن فى تعدد الألفاظ إسرافاً وارتباكاً وبلبلة . فيه إسراف ما أغنانا عنه خصوصاً والأفكار والحقائق العلمية كثيرة ومتجددة ، ونعجز أحياناً أن نجد لكل واحد منها لفظاً يلائمه . وفيه ارتباك لأنه يؤذن بعدم الدقة فى أداء المعنى الواحد . وفيه بلبلة لأن الترادف التام لايكاد يوجد ، واللفظان وإن أديا معنى واحداً يتفاوتان من بعض النواحى .

(ب) يجدر بالعالم أن يعرف جيداً لغته وما اشتملت عليه من مصطلحات قديمة وحديثة ويتمكن منها كل التمكن . وبذا يستطيع أن يلجأ إليها أولا ويستمد منها ماهو فى حاجة إليه من ألفاظ قبل أن يلجأ إلى لغة أجنبية ، وفى وسعه أن يشتق من لغته وينحت ويضمن ، ويلجأ إلى المجاز — وبابه فسيح — كى يؤدى المعنى العلمى الجديد — فلايلجأ إلى التعريب إلا فى حالات خاصة وعند الضرورة القصوى . والتعريب

نفسه كلما أخذ عن الأصل اليونانى أو اللاتينى كان أولى .

(ج) لاتترك المصطلحات العلمية لهوى المصطلح وحده بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون ، وإذا كانت المصطلحات هى لغة العلماء فمن حقهم أن يقولوا كلمتهم فيها . وهنا تبدو أهمية الجماعات والهيئات العلمية فى تكوين المصطلحات واستقرارها .

وليست المصطلحات العلمية من وضع العالم ، وحده بل يشاركه فيها أحياناً الناقل والمترجم . ومن المترجمين من لم يتخصص فيما يترجمه ويكتفى بمعرفته للغة المنقول عنها والمنقول إليها . وقد تكون هذه المعرفة نفسها محدودة فيسئ إلى العلم والترجمة معاً . وواجب العلماء أن يرعوا هذه الترجمات ويتداركوا أخطاءها .

* * *

هذه هى المصطلحات : وهذا هو حق العالم فى وضعها . ولايفوتنى أن أشير إلى موقف المجمع اللغوى منها ، وقد نص مرسوم إنشائه صراحة على أن من أغراضه « المحافظة على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر » .

وكان طبيعياً أن يعنى بالمصطلحات العلمية ، وفى أضابيره ألوف من المصطلحات فى الطب والأحياء والقانون والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والرياضة والإحصاء والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع ، وكثير من ألفاظ الحضارة الحديثة . وقد حاول نشرها فأخرج منها مجموعات ، يلى بعضها بعضاً ، وهو يخرج منها الآن مجموعة كل عام .

ومنهج المجمع فى معالجة المصطلحات واضح ويسير ، فهو يستمدها من المتخصصين أنفسهم ويحرص على أن يسجل ما استقر عليه رأيهم . وسبيله إلى ذلك لجانه التى تعول على الخبراء من أساتذة الجامعة وغيرهم ، ولهؤلاء أن يضعوا اللفظ الذى يرونه عن طريق النحت والاشتقاق ، أو النقل والتعريب ، وما ترتضيه اللجان يعرض على مجلس المجمع ثم على

مؤتمره : فإذا ما أقر بلغ للهيئات العلمية المختلفة لينال حظه من النقد والملاحظة أو التأييد والموافقة .

ولكي ييسر المجمع على العلماء مهمتهم أقر طائفة من المبادئ فيها كثير من التسامح والتجديد ، وأكتفي بأن أشير إلى أمثلة منها :

١ — فأجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان وفتح بذلك باباً أريد به أن يغلق ، يوم أن قُررت تلك القاعدة المشهورة من أنه لا يشتق من لفظ جامد.

٢ — وقبل المصدر الصناعي ورسم السبيل لتكوينه ، وهو أن يزاد على الكلمة ياء النسب والتاء . والمشتغلون بوضع المصطلحات يدركون ما لهذا المصدر من شأن في أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية ، وبخاصة في التدبير عن أسماء النظريات والمذاهب المنتهية ب Ism .

٣ — سمح بالتعريب واستعمال الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم ، وقد أقر فيما عرض عليه من مصطلحات عدداً غير قليل من الألفاظ المعربة . ولا يرى المجمع ما يمنع من قبوله سواء أجاء على أقيسة العرب أم خرج عليها .

٤ — حاول أيضاً أن يقيس فيما لم يقل بالقياس فيه ؛ فصاغ اسم الآلة من الثلاثي قياساً على وزن مفعل ومفعال ومفعلة ، واتخذ وزن فعالة للدلالة على الحرفة وما أشبهها من أي باب من أبواب الثلاثي ، ووافق على النسب بالألف والنون والياء إلا إن تجافى مع الذوق العربي ، كروحاني ونفساني ، وعلى دخول «أل» على حرف النفي كاللاهوائي واللامائي .

٥ — ولم يفته أن يرسم طريقاً لكتابة الأعلام الأجنبية مقرراً أنه ينبغي أن تكتب بوجه عام على حسب ما تنطق به في اللغة الأصلية ، اللهم إلا إن كان قد نطقها العرب قديماً على نحو خاص ، فيلتزم هذا النطق . ولست في حاجة أن أشير إلى أن هذه المبادئ تيسر كثيراً من أمر المصطلحات ووضعها .

* * *

شغل المجمع اللغوى إذن بالمصطلحات العلمية تسجيلا وضبطاً وإن كان قد أصابه منها بعض العنت ، فكانت أحياناً مثار التندر والفكاهة ، وليس حديث « الإرزيز » « والشاطر والمشطور وبينهما طازج » عنا ببعيد ، وقد حاولت عبثاً أن أعثر لها على أصل فى سجلات المجمع ، ويظهر أن واضعى بعض المصطلحات وألفاظ الحضارة يحاولون أن يعزوها إلى الخالدين رجاء أن يكسبوها شيئاً من التأييد والقداسة .

ولم يتردد المجمع فى أن يعيد النظر فى مصطلحات سبق له أن أقرها ، لأن العلم فى حركة مستمرة . وحرص على أن يقرن المصطلح بتعريف يوضح معناه ما أمكن ، ولا يتردد فى أن يرسل إلى الهيئات العلمية فى الداخل والخارج مايقره من مصطلحات ، ويرحب بما تبديه من ملاحظات ، وفى توافر هذه الهيئات ونشاطها ما يعينه على أداء رسالته .

وإذا كانت المجامع اللغوية فى بلاد أخرى لم تشعر بعبء المصطلحات العلمية شعور مجمعنا ، فما ذاك إلا لأنه قامت بجانبها مجامع علمية تستعرض المصطلحات وتمحصها بحيث لايبقى لرجل اللغة إزاءها إلا تحكيم ذوقه ثم تسجيلها .

قد يقال : وما قيمة مصطلحات يقرها المجمع ثم تبقى فى أضابيره أو تنشر فى مجلته ومحاضره ؟ ألا يصح أن نفكر فى طريقة للإلزام وأخذ الناس بها؟ ولا أخفى عليكم أن هذه المسألة أثيرت من قبل ، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بها لاداخل المجمع ولاخارجه ، وعندى أن من يؤمن بالحرية يفضلها على كل نجاح يستطيع أن يحرزه من طريق غير طريقها ، وهو على كل حال نجاح مؤقت وسريع الزوال .

ويكفى المجمع أن يفتح الباب للدارسين وأن يسجل ما يقرون ، فهم الذين يأخذون بيد العلم وهم الذين يستطيعون أن يعدلوا مصطلحاته أو يضيفوا إليها الجديد .

٣
نشأة المصطلحات الفلسفية فى الإسلام

يقوم العلم على دعائم ثلاث : موضوع ينحصر فيه ، ومنهج يدور البحث على أساسه ، وطائفة من القوانين والقواعد يصوب إليها ويرتكز عليها. فالبحوث غير المحدودة الموضوع ليست من العلم وإن مهدت له، والتى لامنهج لها لاتمت إلى العلم الحقيقى بصلة . وقيمة كل علم فيما يشتمل عليه من قواعد ، وما ينتهى إليه من قوانين ونظريات ، وأسمى العلوم وأرسخها أدقها قوانين وأثبتها قواعد . ويمكن أن نلخص نشأة العلوم فى جهود متلاحقة ومحاولات مستمرة ترمى إلى تحديد موضوعاتها ورسم مناهجها .

والمصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمى ، تساعد على التخصص وتعين على حسن الأداء . وإذا كان للجماهير لغتها ، فإن العلماء يحرصون على أن يتميزوا بألفاظ خاصة بهم ، خصوصاً وهذه الألفاظ ترمز لمدلولات دقيقة ومتشعبة ، وفى ذكرها ما يكفى لاستحضارها ، وإن لم يتفق عليها أضحى المجهود العلمى مجرد مناقشة لفظية قد لايكون وراءها طائل . فالمصطلحات العلمية تقرب المسافة بين الباحثين ، وتوفر المجهود ، وتصرفه كله إلى صميم البحث بدل أن يضيع فى حواشيه ، وتزيل كثيراً من أسباب الخلاف .

وللمصطلح أيضاً قيمته من الناحية التعليمية فهو يجمع المتعلمين على دلالات واضحة ، وييسر لهم استساغة الحقائق العلمية فى قوالبها اللفظية الثابتة . وكم يلاقى النشء وشباب المتعلمين من بلبلة واضطراب حينما يجدون أنفسهم أمام مصطلحات متناقضة أو متعارضة ، تتغير من كتاب

إلى كتاب أو من أستاذ إلى أستاذ !

فالمصطلحات ضرورة علمية . ووسيلة هامة من وسائل التعليم ونقل المعلومات .

* * *

ولم تتكون المصطلحات الفلسفية الإسلامية دفعة وحدة ، بل مرت بأدوار عدة ونشأت نشأة الفلسفة نفسها ، فبدت أول الأمر محدودة ضعيفة مترددة ، فكانت تقتصر على ألفاظ قليلة يؤخذ بها حيناً ثم يعدل عنها حيناً آخر ، ولكنها مالبثت أن نمت وترعرعت : وتعددت وتعقدت ، واختلفت مدلولاتها باختلاف الفلسفات والفلاسفة . وإذا شئنا أن نعرف مصادرها وكيفية تكوينها : فجدير بنا أن نتجه إلى ناحيتين هامتين : المعتزلة من جانب وجماعة المترجمين من جانب آخر .

ويعد المعتزلة دون نزاع المؤسسين للمدرسة العقلية الأولى فى الإسلام . بدءوا بدءاً دينياً ، ولكنهم — وقد حكموا عقولهم وغلّبوا حرية الرأى على التسليم والتقليد — انتهوا إلى بحوث عقلية خالصة ، وأضحوا مفكرى الإسلام الأحرار . فلاءموا بين العقل والنقل ، وفلسفوا الدين قبل أن يعرف الفلاسفة . ووضعوا دعائم علم الكلام . أو فلسفة الإسلام الإلهية . على أنهم لم يقفوا عند الإلهيات ، بل كانت لهم نظريات فى الطبيعة والسيكلوجيا والأخلاق ، وقضوا نحو مائتين وخمسين سنة ، من أخريات القرن الأول الهجرى إلى منتصف القرن الرابع ، يدافعون عن الدين ويردون شبه الزنادقة والملحدين ، وينهجون نهجاً عالياً فى الجدل والمناظرة ، ويقدمون آيات بينات فى الإفحام أو الإقناع .

وليتهم استمروا جميعاً يناضلون باسم العقل وفى سبيل الدين كما صنع معتزلة البصرة ، ولكن معتزلة بغداد أبوا إلاأن يخلطوا الدين بالسياسة ، فاقتربوا من المأمون كل القرب ، وشاءوا باسمه أن يفرضوا على الناس آراءهم وتعاليمهم ، وتحولت حرية الرأى فى أيديهم إلى تحكم واستبداد .

ومحنة خلق القرآن أصدق شاهد على ذلك . وقد لاقى بعض المسلمين — وعلى رأسهم أحمد بن حنبل — مالاقى بسببها من عنت وإرهاق .

بيد أن السياسة لاتكاد تعطى حتى تأخذ ولاتكاد تؤيد حتى تخذل ، وما إن جاء المتوكل حتى أخذ مجد المعتزلة فى الأفول : وحل الجمود والمحافظة محل اليسر والطلاقة . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل حمل الناس على آرائهم فحاربوها وعلى آثارهم فأبادوها. وبذا قضوا على معظم مؤلفات مدرسة تعد من أكثر مدارس الإسلام إنتاجاً .

وهذا فى أغلب الظن من أهم الأسباب لنقص مادتنا عن الاعتزال والمعتزلة ، وسر ما يلحظ من قلة المصادر المباشرة فى هذه الناحية . إلا أنا نعتقد أن نشر «كتاب المغنى» للقاضى عبد الجبار قد أضاف ثروة هامة إلى معلوماتنا السابقة عن المعتزلة ، وبخاصة ما جاء فى كتاب « الانتصار» للخياط وكتاب « مقالات « الإسلاميين » للأشعرى .

وفى ضوء هذه المصادر نستطيع أن نقف على كثير من المصطلحات التى لجأ إليها المعتزلة . وكان طبيعياً أن يصطلحوا ، فقد بحثوا وأثاروا مشكلات عدة كان لابد لهم أن يعبروا عنها ويختاروا للدلالة عليها الألفاظ الملائمة. ولا نشير هنا إلى اصطلاحاتهم الخاصة كالعدل والتوحيد، والصلاح والأصلح ، والحسن والقبيح العقليين ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين . وإنما نشير إلى تلك المصطلحات التى تبناها الفلاسفة من بعدهم ، وبقيت تردد فى المدارس المختلفة ، كالجزء الذى لايتجزأ أو الجوهر الفرد ، والجسم والروح ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون . ولهم تعبيرات تحمل صدى أرسطو وتردد آراءه : كذلك الذى يعزى إلى أبى الهذيل العلاف فى قوله : « الله عالم وعلمه ذاته » .

فلدى المعتزلة إذن مصطلحات فلسفية كما أن لديهم فلسفة ، وإذا كان التفكير الفلسفى الإسلامى قد نبت على أيديهم ، فليس غريباً أن تنبت معه الألفاظ والعبارات التى تؤديه . وأوضح ما يلحظ على هذه

الألفاظ أنها عربية خالصة ، ذلك لأن واضعيها تمكنوا من اللغة تمكناً تاماً ، فاستطاعوا أن يتخيروا لكل معنى أحسن لفظ يلائمه . وبلاغة واصل وأبى الهذيل والنظام والجاحظ كانت مضرب المثل ومبعث الإعجاب . وكم نود أن يوضع بحث مستقل عن المصطلح المعتزلى فى نشأته وتطوره .

* * *

وأما المترجمون فقد بدءوا أيضاً مهمتهم قبل أن يظهر الفلاسفة ، واستمروا يعالجونها بعد ظهورهم وعلى مقربة منهم . وإنا لندع جانباً ماحوول من ترجمات فى أخريات القرن الأول الهجرى على يدى خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ، وبعبارة أخرى ما ترجم فى عهد بنى أمية ، فقد كان محدوداً للغاية . والعباسيون هم الذين دفعوا الترجمة الإسلامية دفعة قوية ، وشاركهم فى ذلك العظماء والوجهاء ، ومضت تسير فى طريقها نحو قرنين أو يزيد . فاختاروا المترجمين الأكفاء وبذلوا جهوداً كبيرة فى البحث عن الكتب القيمة ، وأنشئوا بيت الحكمة ليقيم فيه المترجمون وتحفظ آثارهم .

وقد استوعبت الترجمة الإسلامية ألواناً شتى من الثقافة والمعرفة ، فترجمت كتب علمية وفلسفية ، وأخرى أدبية ودينية . وأفاد المسلمون من الثقافات الكبرى التى سبقتهم – شرقية كانت أو غربية – ونقلوا عن اللغات الآتية : العبرية والسريانية ، الفارسية والهندية ، اللاتينية واليونانية . ولم يكتفوا بأصل ولا ترجمة واحدة للمؤلف الواحد ، بل حاولوا أن يجمعوا له عدة أصول وأن يترجموه غير مرة كى ينقلوا إلى العربية فى أدق صورة ممكنة أفكار الأمم الأخرى .

ولسنا فى حاجة أن نعرض لما نعم به هؤلاء المترجمون من حظوة لدى الخلفاء والأمراء ، فقد بعثوا فى طلبهم إلى جهات عدة ، وأغدقت عليهم النعم من كل جانب . ويكفى أن نشير إلى أن الرشيد أعلن فى حاشيته يوماً ، أن من أراد منه شيئاً فليسأل جبريل بن بختيشوع الذى

لا يرد له طلباً . ويحكى أن حنين بن إسحق كان يبيع مترجماته للمأمون بما يعادل وزنها ذهباً . ولئن كان فى هذه الرواية ضرب من المبالغة ، إنها تدل قطعاً على مدى عناية الخلفاء بالمترجمات والمترجمين .

لم يقف المسلمون فى البحث عن المترجمين عند جنس ولا عقيدة معينة . فكان منهم الفرس والهنود ، والصابئة واليهود والمسيحيون . غير أن هناك جهات ثلاثاً لها شأنها ، قد غذت المسلمين بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلمية والفلسفية وأنفعها ، ونعنى بها الإسكندرية وجنديسابور وحران . فى الإسكندرية بدئت أول ترجمة فى الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد، والكيمياء الإسلامية مستمدة فى أغلبها من الإسكندرية ، والطب الإسلامى فى أساسه جالينوسى أو بعبارة أخرى إسكندرى ، ذلك لأن الإسكندرية قد احتفظت بمعظم مخلفات جالينوس . ومدرسة الإسكندرية أو الأفلاطونية الحديثة ذات أثر واضح فى مختلف المدارس العقلية الإسلامية ، وباختصار نعتبر الإسكندرية همزة الوصل بين أثينا وبغداد .

وأما جنديسابور فكانت مقر تلك المدرسة الطبية المشهورة التى أسسها كسرى الأول ، ومنها استمد المسلمون الكثير من أطبائهم ومترجميهم ، وخاصة آل بختيشوع الذين كان لهم شأن يذكر فى تاريخ الترجمة والطب العربى .

وأما حران فكانت ملجأ الوثنية اليونانية بعد أن أغلق جوستنيان المدارس الفلسفية فى الغرب . وقد أمدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين ، على رأسهم ثابت بن قرة ، والبتانى الفلكى والرياضى ، وابن وحشية صاحب الفلاحة النبطية .

فعن هذه المدن الثلاث صدر معظم المترجمين ، وبخاصة جماعة النساطرة واليعاقبة الذين أبقوا على الدراسات الفلسفية فى الشرق . ودون أن نسترسل فى الحديث عن هؤلاء المترجمين وما أكثرهم ! نخص

بالذكر مدرسة لها خطرها ، وهى مدرسة حنين بن إسحق التى قضت نحو قرن فى جمع المؤلفات القيمة المكتوبة باليونانية والسريانية ، وترجمتها ترجمة دقيقة . فقد ضمت حنيناً ، وابنه إسحق ، وابن أخته حبيشاً ، والحجاج بن مطر ، ويحيى بن البطريق ، وقسطا بن لوقا ، وفى هذه المدرسة كانت تترجم الكتب القديمة ، وتعلم اليونانية والسريانية لتلاميذ أتموا ما بدأ أساتذتهم ، فكان يترجم من اليونانية إلى العربية رأساً ، أو منها إلى السريانية ، ومن هذه إلى العربية .

وكان حنين وابنه إسحق يعرفان الفارسية واليونانية والسريانية والعربية ، وقد رحل حنين إلى القسطنطينية للبحث عن الكتب القديمة ، وقضى هناك عامين للتمكن من اللغة اليونانية ، ويصرح بأنه أعاد فى شيخوخته ترجمة ما سبق له أن ترجمه فى شبابه ، أو ما ترجمه سابقوه ومعاصروه ترجمة ناقصة ، وأنه كان يحرص الحرص كله على أن يقيم ترجمته على أصول يونانية . وإذا كان قد عنى بالترجمات الطبية ومؤلفات جالينوس خاصة ، فإن ابنه إسحق قد وقف معظم جهوده على الترجمات الفلسفية وكتب أرسطو وشروحها بوجه خاص ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها فى العربية وحرر ما سبق ترجمته منها . ولا أدل على هذا من أن الأب ألف الأسلوب الجالينوسى ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبي ما بمجرد قراءته أهو من وضع جالينوس أم لا . أما الابن فقد أضحى حجة فى الترجمات الفلسفية ، ويشهد لذلك ما ورد فى مخطوط ترجمة «الأورجانون» الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذى أخذنا عنه صورتين فتوغرافيتين محفوظتين بمكتبة جامعة القاهرة ، إذ يشار فيه إلى أن لإسحق ترجمة أخرى سابقة لمنطق أرسطو تسمى « الدستور » ، وهى بهذا تعتبر حجة المترجمين . ويمكننا أن نقرر بوجه عام أن إسحق وأباه هما أكبر مترجمى الإسلام .

ومادمنا بصدد الترجمات الفلسفية فإنه ينبغى أن نشير إلى شخصيتين

أخريين لهما أيضاً شأنهما وهما أبو بشر متى ويحيى بن عدى اللذان عاصرا الفارابى ، بل لقد تتلمذ لأولهما وكان أستاذاً للثانى . وقد أسهم هذان العالمان إسهاماً واضحاً فى ترجمة الكتب الفلسفية ، وإتمام ما قام به إسحق بن حنين ، وكانت لهما قدم راسخة فى ترجمة الكتب المنطقية ، وكثيراً ما أشير إليهما فى مخطوط « الأورجانون » الذى تحدثنا عنه من قبل .

ولقد عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط ، وأنصاف السقراطيين ، والسوفسطائيين والشكاك ، والرواقيين والأبيقوريين ، إلا أنهم لم يترجموا لهؤلاء جميعاً شيئاً يذكر ، ولم يستوقفهم إلا مؤلفات أفلاطون وأرسطو وما عليها من شروح ، فترجم من محاورات أفلاطون بيقين الجمهورية ، والنواميس ، وطيماوس ، والسوفيسط ، والسياسى ، وفيدون ، ودفاع سقراط . وعربت كتب أرسطو كلها تقريباً ، ولكى يفهم أرسطو جيداً كان لابد من ترجمة كتب شراحه ، فبدئ بثيوفرسطس ، وعنى عناية خاصة بالإسكندر الأفروديسى أو فاضل المتأخرين كما كان يسميه ابن سينا .

ولم يقف المسلمون عند مؤلفات جالينوس الطبية ، بل ضموا إليها كتبه الفلسفية لما لها من صلة بأفلاطون وأرسطو معاً . وكان لشراح الإسكندرية أثر فى تفهم النظريات الأرسطية ، بل ربما كانوا أقرب إلى المسلمين وأكثر قبولاً من الشراح القدامى وخاصة فور فوريوس ، وثامسطيوس وسمبليقوس ، ويحيى النحوى .

وإذا ما شئنا أن نحكم على هذا المجهود العظيم ، وجدنا أن هؤلاء المترجمين قد ضموا إلى الدقة والنزاهة المقدرة العلمية واللغوية . فكانوا أمناء فى نقلهم دقيقين فى عملهم ، يتحرون المصادر ويتثبتون منها كل التثبت . وإذا كانوا قد أخطئوا فى نسبة مؤلف إلى غير واضعه ، فتلك أحوال نادرة ، على أنهم ربما انساقوا إليها تحت تأثير من سبقوهم ، كما حدث فى كتاب « الربوبية » الذى أثبت البحث أخيراً أنه إنما عزى إلى أرسطو

خطأ قبل الإسلام ، وعلى أيدى السريان الأول .

وأما كفايتهم العلمية فيشهد لنا أنهم لم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما كانوا يلمون بالنواحى التى يترجمون فيها . وقديماً سماهم ابن النديم العلماء المترجمين ، وعد الشهرستانى كثيرين منهم بين الفلاسفة . وحديثاً أطلق عليهم البارون كارادى ڤو لقب الموسوعيين و أصحاب دوائر المعارف Encyclopédistes. ويظهر أنهم لم يكتفوا بهذه الثقافة الواسعة المتشعبة ، بل شاءوا أن يضيفوا إليها تخصصاً فى بعض المواد و بعض المترجمات . فحنين بن إسحق طبيب تفرغ للطب وتخصص تقريباً فى المترجمات الطبية ، وبوجه أخص فى مؤلفات جالينوس ، وابنه إسحق فيلسوف عنى بالمترجمات الفلسفية وكان له فى ترجمة كتب أرسطو منزلة ممتازة ، وثابت بن قرة رياضى اتجه خاصة نحو المترجمات الرياضية ، وترجمته « لعناصر » إقليدس معروفة مشهورة .

وقد ترك هؤلاء المترجمون من المؤلفات ما يبين نواحى ثقافتهم ، ويبرز فى وضوح مستواهم العلمى . وكان لهم شغف خاص بما سموه « المداخل » ، فمدخل فى الطب ، وآخر فى الرياضة ، وثالث فى الموسيقى ، وهكذا . وكأنهم بذلك يجارون فورفوريوس فى مدخله الذى شاء أن يقدم به « لمقولات» أرسطو. ومهما يكن من أمر هذه المداخل ، فإنها ، مضمومة إلى مؤلفاتهم الأخرى ، تعد إحدى نقط البدء الهامة فى الحركة العلمية والفلسفية فى الإسلام .

وأما مقدرتهم اللغوية فتبدو فيما وصلنا من مترجماتهم ومؤلفاتهم . حقاً إنهم لم يتمكنوا من اللغة تمكن المعتزلة ، ولكن فى أسلوبهم وضوح وبساطة تعين على فهم المعنى المراد . وعبارة مخطوط « الأورجانون » الذى أشرنا إليه من قبل سهلة مستساغة وإن لم تخل من ركاكة أحياناً . والمهم أنها ترجمة صادقة لما كتبه أرسطو ، فقد قورنت بالأصل اليونانى وثبتت سلامتها ودقتها . ولقد قام برجشتراسر بدراسات مقارنة من هذا النوع

فيما ترجمه حنين بن إسحق ، وانتهى إلى أن هذا المترجم كان حريصاً كل الحرص على أن يؤدى الأصل الذى يترجمه أصدق أداء فى اللغة العربية ، ولو أساء إلى جمال أسلوبه بعض الإساءة ، فالدقة مستوفاة وتشعر القارئ بأن المترجم متمكن من ألفاظه وتعبيراته كل التمكن . وما قيل عن حنين يمكن أن يقال عن مترجمين آخرين .

على أن هؤلاء المترجمين — كما أسلفنا — ما كانوا يعملون فى انفراد ، بل كانوا متضافرين متعاونين ، ويمكن أن يقال إنهم كانوا متنافسين متسابقين يرمى كل واحد منهم إلى أن يسبق أقرانه ويقدم أصدق ترجمة ممكنة لما يوكل إليه ، فإن لم يرقى أعيدت ترجمته أو صححت ونقحت . وإحصائية واحدة كافية فى توضيح ذلك . فثلاثة وعشرون شخصاً اشتركوا فى ترجمة كتب أرسطو ، وكان نصفهم أو يزيد يجيد اليونانية والعربية ، وقد ترجموا له عشرين مؤلفاً ، وقدموا لها ٨٨ نصاً ، أى بمعدل أربعة نصوص أو يزيد للمؤلف الواحد ، وفى هذا ما يسمح بمقارنة وموازنة كافية .

* * *

وقد أسهم هؤلاء المترجمون إسهاماً كبيراً فى تكوين المصطلحات الفلسفية إلى حد أن قسطاً كبيراً مما تخيروه من الألفاظ لايزال مستعملا إلى اليوم . ومخطوط « الأورجانون » وهو من أقدم المترجمات الفلسفية التى وصلت إلينا يشتمل على مصطلحات منطقية لاتكاد تختلف عن المصطلحات التى استعملها الفلاسفة والمناطقة اللاحقون . ولقد حرص المترجمون على أن يستمدوا مصطلحاتهم من العربية أولا ، فاستعاروا ألفاظاً ذات دلالات لغوية معروفة وشاءوا لها أن تؤدى معانى جديدة على طريق المجاز العرفى . وقد يلجئون إلى مصطلحات العلوم الأسبق تكويناً فيستعملون بعضها للتعبير عن بعض المعانى الفلسفية ، فلفظة « الحكم » و « القضية » مثلا عرفتا لدى الفقهاء قبل أن تعرفا لدى المناطقة .

واشتراك مصطلحات بين علوم مختلفة أمر ملحوظ فى اللغة العربية ،

وقد أشار إليه الخوارزمى قديماً فى « مفاتيح العلوم » فلاحظ أن هذه الاصطلاحات والمواضعات تؤدى معانى مختلفة على حسب العلوم التى تستعمل فيها . فالرجعة لغة المرة من الرجوع . وعند الفقهاء الرجوع فى الطلاق . وعند المتكلمين مايزعمه الشيعة من رجوع الإمام بعد غيبته أو موته ، ولهذا اللفظ دلالات أخرى عند الكتاب والمنجمين . وليس بلازم أن تكون هناك صلة وثيقة بين المداول اللغوى والمدلول الاصطلاحى ، وإن تلمست بعض الملابسات أحياناً .

وإذا لم يجد المترجمون فى العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدى المعانى الجديدة ، وكان لهم فى المصادر الصناعية فسحة كبيرة كالهوية والماهية . وقد يضمون لا النافية إلى كلمة ما ليكونوا منهما لفظاً جديداً كاللاأدرية واللانهائية . وهذا تركيب غير مألوف فى اللغة العربية .

فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجئوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها ، وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل ، فعن اليونانية أخذ مثلا هيولى ، أسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية استعيرت كلمة « ميمر » بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو «شمعا كيانا» ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو . وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استعمل منها كثير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارزمى : « إن أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسام وألقاب اخترعت ، أو ألفاظ من كلام العجم عربت » .

وهذه الألفاظ الدخيلة تحمل ولاشك تارة الأصل الذى صدرت عنه ، ولذلك استعين بها أحياناً على كشف بعض الحقائق وتحقيق بعض المسائل . ومن ذلك ما حاوله بومشترك من التدليل على أن كتاب «الربوبية» قد نسب إلى أرسطو خطأ فى السريانية قبل أن تعرف هذه النسبة فى العربية .

ولم يكن المترجمون موفقين دائماً فيما تخيروا من ألفاظ ، لهذا عدل عن بعضها إلى ألفاظ أخرى ، والمصطلحات العلمية فى حركة مستمرة تبعاً لتحرك العلوم أنفسها. ومن أمثلة ذلك لفظة « أوسيا Ousia » اليونانية ، فقد ترجمت أولا بكلمة «عين » العربية ، واستمرت هذه الكلمة الأخيرة مستعملة إلى عهد الأشعرى ، إلا أنها من الألفاظ المشتركة التى لاتدل نصاً على معنى معين ، لذلك عدل عنها إلى كلمة « جوهر » الفارسية التى قدر لها أن تقضى على الأولى وتحل محلها نهائياً .

* * *

تلك فى اختصار بعض جهود المعتزلة والمترجمين فى تكوين المصطلحات الفلسفية ، وإذا كنا نرجع إلى هذا الماضى لننقب عنه فما ذاك إلا لنعرفه على وجهه ونستعين به على تجاربنا الحاضرة . وفى نشأة المصطلحات الفلسفية الإسلامية دروس ما أجدرنا أن نفيد منها ، وفى مقدمتها أمور ثلاثة :

أولها — أن للترجمة شأناً أى شأن فى وضع المصطلحات الجديدة واختيارها. فكلما كان المترجم متمكنا من اللغة التى ينقل عنها واللغة التى ينقل إليها كان أقدر على تخير اللفظ الملائم ، وكلما خضعت الترجمة لإشراف ومراجعة من أطراف عدة كانت أعون على نقل الأفكار الأجنبية نقلا محكماً . وكذلك كان الشأن فى الترجمة الإسلامية ، فقد كانت وليدة تضافر وتعاون ونتيجة مجهود مشترك لم يخل من تنافس وتسابق ونقد وملاحظة . وإذا كانت ترجماتنا الحديثة فى أغلبها ثمرة أعمال فردية فإن فى النشر ما يضعها موضع النقد والملاحظة . وفى استعمال مصطلحاتها فى التأليف والدراسة مايصفيها وينقيها . لهذا ينبغى أن نلاحظ هنا جهود المؤلفين والمترجمين المعاصرين قبل أن نقر مصطلحاً من المصطلحات الجديدة . وإذا كانت مهمة المجمع فى أساسها التسجيل ، فواجبنا وواجب الخبراء معنا أن يتتبعوا جهود المعاصرين أولا إن فى مصر أو فى البلاد

العربية ، فى هذه الجهود ما يذلل بعض الصعاب التى تعرض لنا . ورب مصطلح مشهور ، يؤدى المعنى المراد منه بوجه ما ، خير من مصطلح جديد يخلق خلقاً وإن كان أدق فى الدلالة على معناه .

ثانيها — وإذا كنا ندعو إلى تسجيل المصطلحات المعاصرة ، فنحن فى حاجة أمس إلى حصر المصطلحات القديمة . والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التى لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها . وهذا تراث لايصح أن نهمله أو نضيعه ، وقد نجد فيه ما يغنينا عن نحت أو اشتقاق أو تعريب . وما أجدرنا أن نحى هذه المصطلحات القديمة ونخرجها إلى سوق التداول العلمى الحاضر !

فعند دراسة عالم أو فيلسوف إسلامى نعنى بمصطلحاته بقدر مانعنى بآرائه ونظرياته ، وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز مافيه من ألفاظ فنية ومصطلحات . إنا إن فعلنا أحيينا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة ، ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من مصطلحات .

وأخيراً — رسم لنا مترجمو الإسلام سنة صالحة فى الأخذ بها توفير للجهد وقضاء على بعض أسباب التعارض والاضطراب. وذلك أنهم اتقوا ما استطاعوا الإسراف فى وضع المصطلحات الجديدة ، فكلما وجدوا اللغة العادية قادرة على أداء معنى من المعانى اكتفوا بها ، ولم يبحثوا عن مصطلح خاص. وبذا وقفت اصطلاحاتهم عند النظريات الكبرى والقضايا الثابتة ، فقدر لها أن تحيا وأن يؤخذ بها إلى اليوم . أما أن يوضع لكل فكرة لفظ جديد ، ولكل معنى مصطلح خاص ، فى هذا ما فيه من الإثقال والبلبلة ، خصوصاً إذا كان من اليسير أداء هذا المعنى باللغة العادية. وهذه ملاحظة لها شأنها فيما نعانيه من آراء ونظريات حديثة ، إن فى الكيمياء والطبيعة أو فى علم النفس مثلا . فمن بين هذه النظريات مالم يستقر بعد ، ومن هذه الآراء مالايزال موضع خلاف بين الباحثين . وقد لايلتزم أصحاب هذه

الآراء التعبير عنها بألفاظ ثابتة بل يغيرونها بتغير المواطن والكتب . فمن العبث إذن أن نتعجل نحن ، فنقف على أمثال هذه الآراء ألفاظاً خاصة مع أنه قد يقضى عليها بعد حين . وما أشبه هذا بالبحث عن الكمالى فى الوقت الذى لانجد فيه السبيل إلى الضرورى !

ومن الإسراف أن نأخذ عالماً أو فيلسوفاً ما ، فنحاول أن نغلب مصطلحاته على الآخرين مع أنه لايمثل إلا حلقة واحدة من حلقات التفكير الكثيرة فى مادة ما ، وقد لايكون رأيه المعتد به اليوم . وفى هذا مافيه من التعصب وضيق الأفق ، فلنضع مصطلحاتنا بقدر ، ولنقف عند الآراء الثابتة والنظريات المستقرة خشية أن ننغمس فى ترف لاجدوى لنا منه الآن .

٤

المصطلحات العلمية المعاصرة[1]

١ ــ المصطلح جزء من المنهج العلمي، ولا يستقيم منهج إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدى الحقائق العلمية أداء صادقاً ، وقديماً قالوا : « العلم لغة أحكم وضعها » . وبالمصطلح يستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، ويقرب إلى الأذهان. وبه يستعان على التعلم، ويتفاهم العلماء. وقد لاحظ ليبنتز بحق أن اختلاف العلماء يرجع فى قدر كبير منه إلى خلاف على مدلول الألفاظ .

والمصطلح لغة خاصة ، تسير بسير العلم ، وتقف لوقوفه . ولم تنشط هذه اللغة قط نشاطها اليوم ، ذلك لأن العلوم فى حركة دائبة . وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها ، وهو وثيق الصلة بتاريخ الأدب واللغة . ويوم أن ازدهر العلم اليونانى ، ازدهرت معه اللغة والأدب ، ورأينا فى أثينا لغة علمية إلى جانب اللغة الأدبية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وفى بغداد اقترنت النهضة الأدبية بنهضة علمية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة وفى باريس وصل الأدب الفرنسى إلى قمته فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية .

---

(١) مترجم مع اضافات عن بحث بالانجليزية ألقى فى مؤتمر المستشرقين بنيودلهى عام ١٩٦٤ .

وللعالم كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية المستمدة من الفصحى أو من العامية ، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة . وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد ، ويلجأ إلى الأرقام أو الرموز كما صنع فى الرياضة والكيمياء . وكثيراً ماشكا اللغويون من تهجم العلماء على اللغة . وعابوا عليهم الاشتقاق على غير قاعدة . والنحت بلا داع ، والتعريب دون حاجة . ومتن اللغة عزيز على أهله دائماً، وقد يتسامحون فى خطأ نحوى أحياناً ؛ وقل أن يغفروا لفظاً دخيلا . وربما كانت آفة اللغة من النقلة والمترجمين أكثر مما هى من العلماء والمخترعين .

٢ ـ وقد نشأ العلم فى الإسلام منذ عهد مبكر . فكان الصحابة يتعلمون الكتاب والسنة ، وجدّوا فى جمعهما وتدوينهما . ودرسوهما من نواح مختلفة ، وحولهما قامت علوم الدين واللغة . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى تحدد موضوعها ،واتضح منهجها ، وتكونت مصطلحاتها ، وأضحى لكل علم مصطلحاته الخاصة ، كمصطلحات الكلام والفقه والنحو .

وإلى جانب العلوم النقلية قامت علوم عقلية ، ازدهرت بدورها فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . فتدارس المسلمون الطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة ، وأقاموا المعامل والمراصد ، وانتهوا إلى كشوف لم يسبقوا إليها . وكانت لهم لغة علمية متجددة ومتنوعة ، وإذا لم يؤد مصطلح معناه أداء كاملا عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط ، ومما يؤسف له أن هذه اللغة كثيراً ما غابت عن بعض الباحثين المعاصرين .

لم يتكون المصطلح العربى القديم دفعة واحدة ، بل قضى زمناً ينمو ويتطور . ولم يبال واضعوه بأن يكون المصطلح عربياً أصيلا أو معرباً دخيلا. وربما آثروا اللفظ الأجنبى إذا كان أدخل فى المعنى وأكمل

فى الأداء . فترجمت مثلا كلمة Ousia اليونانية فى البداية بلفظ «عين» بالعربية ، ثم عدل عن هذه لشيوعها إلى كلمة « جوهر » الفارسية الأصل. وكثيراً ما يحمل التعريب شارة المصدر الذى نقل عنه ، فتلحظ الألفاظ الفارسية فى مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسريانية فى العلوم الفلسفية والطبيعية . وقد ثبت المصطلح العلمى واستقر بحيث تنوسى معناه الأول ، ولم يفهم إلا فى مدلوله الجديد . وسجلت المصطلحات فى معجمات خاصة ، وتوفر للعرب منها عدد غير قليل . ويكفى أن نشير إلى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ٩٧٧م ، و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى (١٧٤٥م) .

وأبى المصطلح العربى إلا أن يغزو ثقافات أخرى ، فنقلت منه ألفاظ إلى اللاتينية حين أخذ المدرسيون ينقلون عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وغمر الفارسية والتركية والأردية بسيل منه ، ولاتزال هذه اللغات تردد مصطلحات عربية خالصة . وربما استطاعت أن تفيد من المصطلح العربى الحديث ، كما أفادت من المصطلح القديم .

٣ — ويوم أن ركد البحث العلمى ركدت لغته معه ، فأهملت المراصد فى العالم العربى ، وجمدت المصطلحات . فلا تجديد فيها ولا ابتكار ، ولا حياة ولا قوة . وردد الخلف ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأضحت اللغة العلمية ركيكة معقدة .

ثم جاءت النهضة العربية الحديثة على فترة من البحث والدراسة ، ويظهر أن رجالها الأول فى القرن التاسع عشر لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يستفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لايخلو من تعجل وخطأ . وقد وضعوا فى أخريات القرن الماضى بعض المعجمات العلمية التى تحمل طابعاً عامياً وأجنبياً واضحاً .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، وينهضوا

باللغة العلمية نهوضهم باللغة الأدبية . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية فى نمو مطرد وتجديد لاينقطع ، ولها فى اللغات الأوربية معاجم تزاد وتستكمل عاماً بعد عام . وفكر فى إنشاء المجامع اللغوية ، وأريد بها أن تسهم بنصيب فى إحياء المصطلح العربى ونهوضه .

٤ – لمجمع اللغة العربية ، الذى أنشئ بالقاهرة فى أول العقد الرابع من هذا القرن ، شأن فى نهضة المصطلحات العربية المعاصرة ، ومن أهم أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون » . وقد شغل بذلك منذ قيامه : محاولا إحياء المصطلح القديم إن كان ثمة سبيل إلى إحيائه ، أو البحث عن مصطلح جديد يكون أنسب للمعنى وأدل عليه . وأعد للمصطلحات أجهزة خاصة من خبراء ومحررين ولجان متعددة ، وحرص على أن يتأنى فى الدرس والمراجعة . فيعرض للمصطلح فى لجانه ، ثم فى مجلسه ومؤتمره ، ولايتردد فى أن يعيد النظر فيه إن دعا الأمر .

ويؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه المختصون ما دام لايتعارض مع أصل من أصول اللغة ، ويدعو إلى جمع المصطلحات العربية القديمة ، وإن كان يرى أنها أصبحت لاتفى بالحاجة . ولايتردد فى أن يعرب كما عرب قديماً ، فأخذ عن اليونانية والهندية ، والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وكما عرب حديثاً عن الإسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية . والعامية فى قسط كبير منها فصيحة الأصل ، ولا ضير أن نستعين بها فى صوغ المصطلح الجديد .

وتوسع فى الاشتقاق والقياس ، فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط من الكهرباء والمغنطيس ، كما قيل قديماً مفضض ومذهب . وقال بقياسية المصدر الصناعى . وكان مقصوراً من قبل على السماع ، فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية .

وحاول أن يقيس أوزاناً فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، كالحرفة والداء والصوت . وأجاز النسب إلى جمع التكسير ؛ وكان مقرراً ألا ينسب إلا إلى مفرد، ودخول «أل» على «لا» النافية كاللاهوائى واللامائى .

ورسم للتعريب ضوابط تنظمه : فيعرب خاصة مايدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وإلكترون ، وما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان أو سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء، وما ينسب إلى علم من اسم شخص أواسم مكان . وينبغى ترجمة ما وراء ذلك من الكلمات التى أخذت من اللغة العادية لأداء معان علمية . ويحتفظ فى التعريب بالأصل ما أمكن ؛ ويؤخذ بأقرب نطق إلى العربية، ويشكل المصطلح المعرب ضبطاً لنطقه .

ويرى أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ واضحاً دقيقاً ، صالحاً للاشتقاق والنسبة إليه ، مع تجنب الغرابة والابتذال. ويختص كل علم بمصطلحاته ، وقد يستعمل اللفظ الواحد فى معان مختلفة باختلاف العلوم ، على أن توحد المصطلحات المشتركة التى لا تتغير دلالتها من علم إلى علم .

واستطاع بهذا أن يقر آلاف المصطلحات فى العلوم المختلفة ، وأخرج منها كراسات ومجموعات متلاحقة ، ويحرص فى السنوات الأخيرة على أن يخرج كل عام مجموعة تشتمل على ما يقره مؤتمره السنوى ، وتبلغ فى المتوسط نحو ألفى مصطلح ، وفى هذه المجموعات عون للدارسين والباحثين ، وفيها نواة صالحة للمعجمات العلمية .

٥ — وتحظى المصطلحات العلمية اليوم بعناية خاصة من المؤلفين والمترجمين ، وفى ربع القرن الأخير نشاط ملحوظ فى التأليف والترجمة العلمية . دعت إليه حاجة التعلم العام والجامعى ، والرغبة الأكيدة فى نشر الثقافة . وفى العربية اليوم مؤلفات علمية حديثة متعددة ومتنوعة ، وربما ألحق بالمؤلف ثبت بما ورد فيه من مصطلحات ومقابلها الأجنبى.

وبدئت محاولات في وضع معجمات مصطلحات عربية في بعض العلوم .

ولانزاع في أن الدراسة الجامعية ، وهي تنتشر وتتوطد في العالم العربي عاماً بعد عام ، ستدفع هذا التأليف قدماً وتوفر كتباً علمية للخاصة ، وأخرى للثقافة العامة . وللدراسة الابتدائية والثانوية كتبها العلمية التي يرجى أن توحد في البلاد العربية . وهناك مؤسسات للنشر والتأليف والترجمة ، وهي تغذى القارئ العربي بغذاء لاينقطع من العلم والفن .

٦ — وبرغم هذا : لايزال المصطلح العلمي المعاصر قلقاً ودون الحاجة . فيه بلبلة واضطراب في الحديث والكتابة . فيختلف من بلد إلى بلد ، بل من مؤلف إلى آخر . يصطلح العلماء أحياناً ، كل كما يرى ، ويترجم المترجمون على أنحاء مختلفة . وتباينت النهضة العلمية : بدءاً ومؤثرات ؛ من بلد إلى بلد ، فبينا يلحظ مثلا أن العراق والسودان أكثر تأثراً بالثقافة الإنجليزية ، إذا بشمال إفريقية تغلب عليه الثقافة الفرنسية ، وربما اجتمع في بلد واحد أكثر من تيار ثقافي ، كما هو الشأن في مصر .

وتبذل جهود شتى لتوحيد المصطلح العلمي في البلاد العربية ؛ عن طريق المجامع اللغوية تارة والمؤتمرات العلمية تارة أخرى . وتسهم الجامعة العربية في ذلك إسهاما فعالا ، فتعقد لجاناً للمصطلحات تمثل فيها البلاد المختلفة ، وتنظم المؤتمرات ، وتشجع الاتحادات العلمية . وفي وسعها أن تقود حركة ثقافية عربية شاملة ، وربما كانت أعمق وأنجع مما يعالجه اليونسكو في النطاق الدولي . والعالم العربي اليوم في اتصاله الفكري والثقافي لابد ملتق عند مصطلحات علمية وفنية واحدة ، وقد خطا بالفعل خطوات فسيحة في سبيل توحيد المصطلح العلمي . وبرهنت العربية على أنها ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من أية لغة أخرى ، وكم من مصطلح عربي ألصق بمعناه وأدق في دلالته من مصطلح أجنبي .

الباب الثالث

فى المعجمات

١

فن المعجمات

نشطت الدراسات اللغوية نشاطاً ملحوظاً منذ قرن أو يزيد ، تنوعت وتشعبت ، ظهرت فيها تيارات مختلفة واتجاهات متعددة . فدرست اللغة على أنها إحدى الظواهر الاجتماعية ، تنبعث من المجتمع ، تسير بسيره وتتوقف لوقوفه ، تتأثر ببيئته الجغرافية ونظمه السياسية ، تتلون بلون علمه وفنه ، تفصح عن آرائه ومعتقداته ، تعبر فى اختصار عن مظاهر حضارته ومدنيته ، ومن هنا نشأ « علم الاجتماع اللغوى» . ودرست أيضاً على أنها ظاهرة نفسية ، تؤدى بالرمز والإشارة تارة ، أو بالصوت والحرف تارة أخرى . وهى فى هذا كله إنما تعبر عن خلجات نفسية ومعان ذهنية ، فتبرز ما يجول فى الخاطر من شعور ووجدان ، وخيال وتصور ، ونزوع وإرادة ، وحكم واستدلال ، ونشأ عن ذلك ما يسمى « علم النفس اللغوى » .

وزادت الدراسات اللغوية الخالصة نماء وخصباً ، فدرست اللهجات قديمها وحديثها ، جمعت مفرداتها وتراكيبها ، كشف عن نحوها وصرفها ، قورن بينها ، ربط بعضها ببعض ، وضحت الصلة بينها وبين اللغة الأم ، استعين بها على فهم الفصحى وتغذيتها ، وأصبح « علم اللهجات» من أهم فروع علم اللغة العام . عنى كذلك بالأصوات والحروف ومخارجها ؛ فبين ما تعتمد عليه من أعضاء النطق ، وما تختلف فيه من همس ونبر ، وقصر ومد ، ولين وسكون ، قيست بأقيسة دقيقة واستخدمت فيها أجهزة خاصة ، أسست من أجلها معاهد ومعامل ، وكل ذلك دعامة ما يسمى « علم الأصوات » . بحثت أيضاً معانى الكلمات فى صورها

المختلفة ، وأريد تلمس علاقة بين الحروف ومدلولها ، وظن أن الكلمة تدل بلفظها على شيء من معناها ، وجملة هذا ما يسمى « السيمية » أو « علم الدلالة » . ويدخل فيه البحث فى مدلولات الكلمة الواحدة ، واختلافها باختلاف الاستعمال ، وتتبعها فى تصريفها واشتقاقها ، وتطورها بتطور العصور ، وهذا هو « فن المعجمات » الذى نود أن نقف عنده قليلا .

* * *

ليس هذا الفن ابن اليوم ، بل يرجع إلى التاريخ القديم ، عرف منذ عهد بعيد ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر الزمن ، وكان للقرن الماضى شأن كبير فى نهوضه وتقدمه ، وأصبحنا أمام فن حديث للمعجمات ، اتضحت أصوله ومبادئه ، وتوفرت أدواته ووسائله ، وتنوعت سبله ومناهجه . ولا يعد من المعاجم فى شيء كل مؤلف لا يأخذ بهذه المبادئ أو يخرج عليها .

وقد وضعت فى التاريخ القديم معاجم فى اليونانية واللاتينية ، ومما يؤسف له أن فقد معظمها ، ولم نظفر منها إلا بشذرات متفرقة . ووضعت فى القرون الوسطى أيضاً معاجم يونانية ولاتينية ، وصلنا منها قدر لا بأس به . ولكنا نستطيع أن نقرر أن ليس ثمة لغة قديمة — ولا حديثة — توافر لها ما توافر للعربية من معجمات . بدئ فى وضعها منذ أخريات القرن الثامن الميلادى ، وتوالت العناية بها إلى اليوم. ولا يكاد يخلو قرن من معجم عربى جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم . وخطا العرب فى فن المعجمات خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ورجال القرون الوسطى ، وأثروا فى معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . إلا أن هذا الفن لم يتوقف واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر ، وظهرت آثاره واضحة فى بعض المعجمات

الأوربية الكبرى ، كمعجم « لاروس » فى الفرنسية ، و« أكسفورد » ، و « ويستر » فى الإنجليزية .

ويمكن أن ترد النهضة المعجمية إلى عوامل ثلاثة أساسية : عناية بالغة بالوضوح والترتيب ، أخذ بالمنهج التاريخى ، توسع فى الطابع الموسوعى . والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل ، فينبغى أن يكون واضحاً ، دقيقاً ، محكم التبويب . والتبويب دعامة أولى فى وضوح التأليف المعجمى ، وقد مر بأدوار مختلفة ، يكفى أن نشير منها إلى تبويب المعجم العربى . بدأه الخليل بن أحمد بترتيب « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، كما صنعت الأكاديمية الفرنسية بعده بنحو عشرة قرون فى أول طبعة لمعجمها ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهرى إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيب مواد المعجم . وكل ذلك لايخلو من تعقيد ، ويتطلب إلماماً بالتصريف والاشتقاق . وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، وهذا ما انتهى إليه فن المعاجم الحديث ، ومن اليسير تطبيقه على العربية وإن تكن لغة اشتقاق . ومما يزيد المعجم وضوحاً جلاء شروحه وتعاريفه ، فتكتب بلغة سهلة ، وتصاغ فى عبارة دقيقة . ولاشك فى أن الرسوم والصور واللوحات الهندسية والجغرافية من خير وسائل الإيضاح ، وتعد اليوم ركناً هاماً من أركان التأليف المعجمى .

وللألفاظ تاريخ ، كالأفكار والأشياء ، فيبحث عن أصولها ، ويتتبع تطورها ولايقف هذا التاريخ عند عصر ولايحدد بجيل ، وربما قام التأصيل اللغوى على فروض غير جازمة ، ولكنه باب طريف من أبواب الدراسة اللغوية المقارنة . ويبدو تطور الألفاظ فى استكمال صقلها ، وشيوع استعمالها ، واختلاف مدلولها باختلاف العصور ، ويحرص

اللغوى على تتبع ذلك ، والوقوف على مراحله ، وتوضيحه فى ضوء ما ورد من شعر ونثر ، والكشف عن الألفاظ والتعابير المهملة والمستعملة . ولا بد له أن يتذرع لهذا بالصبر والجلد ، وأن تتضافر عليه جهود كثيرة. ومعجم « أكسفورد » من أوضح الأمثلة على المعاجم التاريخية ، ولعل فى قصر عمر اللغة الإنجليزية نسبياً وتحدد مصادرها ما أعان على ذلك .

ومن المعجمات القديمة ما لم يقف عند المادة اللغوية ، بل جاوزها إلى سرد معلومات فى التاريخ والجغرافيا والعلم والفلسفة ، إلا أنها تذكر فى الغالب استطراداً ، وفى غير ما تحر ولا دقة . ويراد بالمعجم الحديث اليوم أن يرتب ذلك ويعرضه فى أضبط صورة وأحدثها ، فيقدم ألواناً من المعرفة وضروباً من العلوم والفنون تحت أسماء المصطلحات الخاصة بها . والمصطلح العلمى جزء من اللغة ولاشك ، وفى شرحه بإيجاز فى معجم لغوى شرحاً دقيقاً ما يسعف الباحث وما قد يغنى عن الرجوع إلى المصادر المطولة . ويعرض المعجم أيضاً لأعلام الأشخاص والأماكن ، فيعرّف بها فى اختصار ، ويبين منزلتها فى تاريخ الفكر الإنسانى . وقد يختلف فى ذكر هذه الأعلام ، فحرمته الأكاديمية الفرنسية على نفسها فى معجمها ، وأخذت به معجمات أخرى . ونعتقد أن هذا الطابع الموسوعى إنما كان أثراً من آثار انتشار دوائر المعارف فى القرن التاسع عشر والتعلق بها ، ومن أوضح الأمثلة عليه « معجم لاروس » فى الفرنسية . وإذا كان المعجم يوضح الألفاظ ، ودائرة المعارف توضح الأشياء ، فإن الأسماء ومسمياتها متصلة ومختلطة . وقد قيل : « إن المعجم «هو الكون مرتباً ترتيباً هجائيـاً » .

* * *

وبذا انقضى الزمن الذى كان يقف فيه التأليف المعجمى عند مجرد تلخيص ما ورد فى معجمات سابقة أو جمعه ، ولابد له من أدوات ووسائل شتى ، فيزود بمكتبة حافلة فى الأدب واللغة والعلم والفن، تجمع

بين القديم والحديث، وتتوافر فيها كل المصادر . ويؤخذ فيه بنظام الجزازات أخذاً محكماً ؛ فتعد بحيث تقبل الحذف والزيادة ، وترتب وتبوب ، وتحفظ فى أحراز أمينة . ولابد أن تضطلع به كفايات متخصصة ، وتتضافر عليه خبرات متعددة ؛ فيسهم فيه اللغوى والأديب ، والعالم والفيلسوف ، والمؤرخ والجغرافى ؛ ويكوّنون من بينهم جهازاً دائماً ، وخبراء ومراسلين يستعان بهم عند الحاجة . وليس ثمة دار من دور المعجمات الكبرى إلا وفيها هذا الجهاز المنظم المنسق ؛ به تنتج ، وبه تتابع وتراجع ماسبق لها أن أنتجته . والتأليف المعجمى طويل المدى ؛ فلم تخرج الأكاديمية الفرنسية معجمها إلا بعد نحو مائة سنة ، ووقف ليتريه ثلاثين سنة من عمره على معجمه ، ولم يكمل « معجم أكسفورد » إلا فى نحو ٧٠ عاماً . وحياة هذا التأليف فى رسم خطته واستكمال أجهزته .

٢

المعجم العربي في القرن العشرين [١]

١ — قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات ما توافر للعربية . وإذا تركنا جانباً تلك الرسائل الصغيرة التي ظهرت في القرن الأول للهجرة ، وجدنا الخليل بن أحمد قد افتتح عصر المعجمات الكبرى في القرن الثاني بوضعه «كتاب العين» . ثم تنافس الباحثون من بعده في وضع معجمات متلاحقة ، من أحجام مختلفة وفي تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربي جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم ، ويمكننا أن نذكر من بينها القرن الرابع الذي يعد بحق القرن الذهبي للمعجم العربي ، فقد ظهر فيه «الجمهرة» لابن دريد (٣٢١) ، و «التهذيب» للأزهري (٣٧٠) ، و «المحيط» للصاحب بن عباد (٣٨٥) ، و «المجمل» لابن فارس (٣٩٥)، و «الصحاح» للجوهري (٣٩٧) . ووصل إلينا معظم المعجمات القديمة عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبين أيدينا اليوم منها قدر لا بأس به ، نصدر عنه ونعول عليه ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية .

وفي التاريخ القديم معجمات يونانية ولاتينية ، ولكنها لم تبلغ مبلغ المعجمات العربية ، ولم يصلنا منها إلا شذرات صغيرة ، وأقدم معجم يوناني أو لاتيني عرفناه يصعد إلى القرون الوسطى ، ويعد عصر النهضة بوجه خاص نقطة بدء هامة في تاريخ الدراسات اللغوية . ولم توضع معجمات

---

(١) مترجم بتصرف من بحث ألقي بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين بموسكو عام ١٩٦١

فى اللغات الأوربية الكبرى إلا فى عهد متأخر ، ففى إنجلترا مثلا لم تظهر الإنجليزية فى المعجم إلا لخدمة اللاتينية حتى القرن السادس عشر . وفى القرن السابع عشر بدئ فى وضع معجمات للغات الأوربية الحديثة ، وأخذ فن المعاجم ينمو ويتطور . فعنى بترتيب المواد وتحديد مدلول الألفاظ ، وألفت معجمات كبيرة وأخرى صغيرة ، فى لغة واحدة أو فى عدة لغات ، وامتد تصنيفها إلى الفلسفة والعلوم ، فوضعت معجمات فى التاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات . وبلغ هذا الفن القمة فى القرن التاسع عشر ، الذى ظهر فيه معجم « لتريه » و « لاروس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » و « وبستر » فى الإنجليزية ، و « أدلونج » فى الألمانية ، ومعجم « أكاديمية سان بطرسبورج » فى الروسية .

٢ — ولا نزاع فى أن المعجمات العربية القديمة غزيرة المادة ، تؤذن باطلاع واسع ومجهود عظيم . ولها قيمة تاريخية لا تنكر ، وستبقى معيناً لا ينضب فى بيان أصول الكلمات وشرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . إلا أنها تشتمل على بعض العيوب المشتركة ، فتخطئ أحياناً فى ضبط الكلمات ، وتسرف فى سرد المترادفات ، وفى تعريفاتها غموض وفى معلوماتها خلط ، وخاصة حين تجاوز اللغة إلى بحوث فى التاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة .

ونشير خاصة إلى منهجها والأساس الذى قامت عليه ، فهى تضيق دائرة اللغة ، ولا تكاد تسلم إلا بما أخذ عن البادية ، تقبل لغة الجاهلية وصدر الإسلام ، وتنكر ما عداهما ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثانى للهجرة . فتهمل عصور اللغة الأخرى ، ولا تعبر عن العصر الذى وضعت فيه ، وكأنما تغفل قانون التطور الذى يقضى بأن تتابع اللغة سير المجتمع الذى نعيش فيه . فيها حشو وتكرار ، وكثيراً ما أخذ لاحقها عن سابقها فى غير ما تعديل ولا تصرف . ويعترف ابن منظور صاحب « اللسان » ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه جمع « تهذيب »

الأزهرى و « صحاح » الجوهرى ، و « محكم » ابن سيده ، و « حواشى ابن برى على الصحاح » ، و « النهاية » لابن الأثير . وما أحوجنا إلى درس المعجمات العربية القديمة درساً مقارناً ، يبين مدى تسلسلها وتأثير بعضها فى بعض .

والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل المأخذ ، فينبغى أن يكون واضحاً ، ودقيقاً ، مصوراً ، محكم التبويب . مما لا يتوافر كثيراً فى معجماتنا القديمة ، ففى الرجوع إليها عناء ، وفى عرضها حشو. حقاً إن ترتيب موادها تطور مع الزمن ، فروعى فيه أولا تدرج الحروف فى أصواتها ومخارجها ، على نحو ما حدث فى الطبعة الأولى من معجم الأكاديمية الفرنسية . ثم عدل عن هذا إلى ترتيب هجائى تلحظ فيه أواخر الكلمات أو أوائلها ، وكل ذلك لا يخلو من تعقيد ، ويتطلب الإلمام بالتصريف والاشتقاق قبل الرجوع إلى المعجم . وهى أيضاً محشوة باستطرادات يضل الباحث فى ثناياها .

٣ — وقد لوحظ هذا من قديم ، وأريد تداركه . ودون أن نعرض لآراء القدامى نكتفى بأن نشير إلى مالاحظه فارس الشدياق فى أخريات القرن الماضى ، ودعاه إلى وضع « الجاسوس على القاموس » . وتابعه فى هذا عالمان لبنانيان آخران ، عنيا بالمعجم العربى ، وشاءا أن يخرجاه فى ترتيب أيسر ، متأثرين فى الغالب بالمعجم الأوربى ، وهما البستانى صاحب « محيط المحيط » الذى رتب مواده ترتيباً هجائياً سهلا ، واقتصد فى الشواهد والنصوص ، والشرتونى صاحب « أقرب الموارد » الذى قدر له رواج أكثر من سابقه ، وهو أحكم ترتيباً وأقل استشهاداً .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بذلت جهود أخرى فى القرن العشرين ، وعُنى خاصة بالمعجمات الصغرى . ذلك لأن ما وضع منها قديماً « كمختار الصحاح » ، و « المصباح المنير » لا يخلو من صعاب ، وقد عوّلت عليهما المدرسة الثانوية المصرية منذ أوائل هذا القرن ، ولم تلبث أن كشفت عما

فيهما من نقص . وفى لبنان أيضاً أخرج الأب لويس المعلوف اليسوعى « المنجد » وهو معجم صغير سهل التناول . ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨ وتوالت بعدها عدة طبعات : فظهرت الخامسة منقحة ومزيدة عام ١٩٢٧ وتلتها السادسة عام ١٩٥٦ : وفيها قسم جديد للآداب والعلوم . ولا شك فى أن « المنجد » محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير » : فهو ميسر التبويب ، سهل المأخذ ، مزود بوسائل الإيضاح من لوحات ورسوم وصور .

بيد أن هذه المحاولات على اختلافها لم تستطع أن تتخلص من سلطان الماضى ، وبقيت خاضعة له خضوعاً تاماً : فلم تصنع شيئاً أكثر من أنها جمعت ما ورد فى المعجمات القديمة ، أو لخصته فى شىء من الوضوح والترتيب . ولم تجرؤ واحدة منها على أن تعرض للغة المعاصرة ، ولا لما يتخاطب به الناس اليوم من ألفاظ العلم والحضارة .

٤ — وكان طبيعياً أن يضطلع مجمع اللغة العربية بذلك ، ونص مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه : « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » . وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية ، وكون فى الدورة الأولى لجنة المعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين ، وحاولت هذه اللجنة رسم الخطة وتحديد معالم المعجم العربى فى القرن العشرين . وكان من بين أعضائها المستشرق الألمانى الدكتور فيشر الذى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، ورغب فى أن ينهج بها نهجاً جديداً . وقد نشر فكرته لأول مرة فى مؤتمر عقد ببال سنة ١٩٠٨ ، واستمر يتعهدها إلى أن أصبح عضواً فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ . وكان يرمى إلى وضع معجم مستمد من النصوص القديمة ، يوضح مختلف المعانى والاستعمالات للألفاظ والعبارات ، ويتتبع تطورها ، ويعرض فى اختصار تاريخها . ولم يتردد المجمع فى أن يوفر له أسباب البحث والدرس ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرجه فى ست سنوات

أو سبع . وبعد عمل متصل طوال أربع سنوات فى الجمع والتنسيق تمهيداً للنشر ، فاجأته الحرب العالمية الثانية واعترضت سبيله . فاحتجز فى ألمانيا ، وبقى مساعدوه وجزازاته فى مصر . ولما وضعت الحرب أوزارها قعد به المرض عن متابعة عمله ، وتوفى عام ١٩٤٩ قبل أن يخرج معجمه إلى النور . وعبثاً حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود أربعين سنة إلا على جزازات غير مستوفاة ، حرص على أن يرتبها ويضعها تحت تصرف الباحثين . ولم يستطع أن ينشر من معجم فيشر إلا مقدمة ونموذجاً صغيراً ، سبق للمؤلف أن أعدهما .

وأغلب الظن أن فيشر قد تأثر « بمعجم أكسفورد » ، وشاء أن يطبق منهجه التاريخى على اللغة العربية . وهى محاولة ولا شك قاسية ، وقل أن يقوم بها فرد وحده ، وقد تكون متعذرة اليوم . لأن العربية أفسح مجالا من الإنجليزية ، ومصادرها أكثر وأغزر ، ومنها ما لم يكشف عنه بعد ، وما كشف لا يزال قدر منه مخطوطاً . ولا أدل على هذا من أن فيشر نفسه قد حصر جهوده ، وقنع بأن يقف عند القرن الثالث الهجرى ، وليته استكمل هذه المرحلة ، إنه لو فعل لأمكن متابعة السير من بعده . وكم نأسف لأن جهوده لم توصل إلى غاية ، وقد حاول المأسوف عليه كريمر أن يفيد ، فى غير جدوى ، من جزازاته لاستكمال « معجم لين » الذى وقف عند حرف « القاف » .

٥ — شغل المجمع بمعجم فيشر زمناً ، ولما يئس من إخراجه استأنف عام ١٩٤٦ جهوده لإخراج معجمه ، واكتفى بأن يسميه «المعجم الكبير» ، تاركاً للزمن استكمال الوسائل الضرورية لوضع المعجم التاريخى . واستطاع عام ١٩٥٦ أن ينشر منه جزءاً فى نحو ٥٠٠ صفحة ، عدّه تجربة دعا المتخصصين من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يعن لهم فيها ، راجياً أن يرسلوا إليه ملاحظاتهم مشكورين . وفى مقدمة هذا الجزء تلخيص للمبادئ التى قام عليها « المعجم الكبير » ،

ومن أهمها أن اللغة كل متصل الأجزاء . يرتبط حاضره بماضيه ، وهما يعدان معاً لمستقبله . والعربية لغة قديمة وحديثة ، صعدت إلى ما قبل الإسلام ، وبقيت مع الزمن ، وأدت ألواناً من ضروب العلم والمعرفة . فلها قديمها الخالد ، وحاضرها الحي ، ومستقبلها الزاهر . فكيف تقف بها عند القرن الثانى أو الرابع الهجرى ؟ إنا إن فعلنا قضينا عليها بالموت . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغة فى مختلف عصورها ، فيضم ألفاظاً حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويستشهد بالشعر والنثر مهما كان العصر الذى قيلا فيه . ولا بد للمعجم الحديث أيضاً أن يشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والأعلام التاريخية والجغرافية وخاصة ما اتصل منها بالأدب العربى ، وأن يلتزم الترتيب الهجائى مع تقديم الأفعال على الأسماء ، والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

وقد ظهر هذا النموذج بعد دراسة طويلة وبحث شامل ، وأثار ما أثار من تعليق وملاحظة فى مجلس المجمع ومؤتمره . فأخذ عليه غلبة الطابع الموسوعى ، والإكثار من الشواهد والنصوص . واستمر المجمع يراجعه ، ويعدل خطته حتى استقام له منهج واضح ، وسار فى تطبيقه شوطاً ، ومنذ قليل أخرج الجزء الأول منه . ووضع المعجمات عمل طويل المدى ، ويكفى جيلاً أن يرسم المنهج فى دقة ، وأن يطبقه على خير وجه ، تاركاً للخلف أن يتدارك ما تقاصرت عنه جهوده .

٦ — وإلى جانب المعجم الكبير : اتجه المجمع نحو معجم وسيط يسد حاجة التعليم . فقد طلبت إليه وزارة المعارف عام ١٩٣٦ أن يسعف العالم العربى بمعجم على نمط حديث ، محكم الترتيب ، واضح الأسلوب ، سهل التناول ، يشتمل على صور لكل ما يحتاج إلى تصوير ، وعلى قدر من مصطلحات العلوم والفنون ، وملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن ، وكأنما كانت تصبو إلى شىء شبيه « بمعجم لاروس الصغير » .

ولم ينتظم العمل فى هذا المعجم إلا بعد فترة ، وسار أحياناً بين البطء والتردد ، ومع هذا كان معداً للطبع منذ بضع سنين . وظهر أخيراً فى جزأين كبيرين ، يحتويان نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير ، ويشتمل على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة . وأغفل فيه منذ البداية ماحق الأعلام ، وقصر على اللغة قديمها وحديثها ، وتوسع فى المصطلحات العلمية الشائعة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة .

وفى هذا المعجم تجديد من نواح شتى ، رتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، فذلل صعوبة البحث عن أصولها ومشتقاتها ، ويسر الشرح وضبط التعاريف ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة . وطور اللغة ، فقاس فيما قصر أمره على السماع ، وقبل ما تدعو إليه الضرورة من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة أو الدخيلة ، وأفسح المجال لألفاظ الحضارة والحياة العامة . وأخذ بطائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التى أقرها المجمع وأصبحت جزءاً من اللغة ، وعرفها المختصون تعريفاً دقيقاً ، وبذا اشتمل على ما لم يشتمل عليه معجم المجمع الفرنسى طوال المائة سنة الأولى من ظهوره . ولا محل لمقارنته « بالمنجد » أو « أقرب الموارد » ، فهو دون نزاع أوضح ، وأدق ، وأضبط ، وأحكم منهجاً ، وأحدث طريقة . وهو بخاصة مجدد ومعاصر ، يهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

وقد أثار شيئاً من النقد والملاحظة ، وإن كان دون ما كنا نتوقع ، وكلنا يعلم كم نوقش معجم الأكاديمية الفرنسية فى عنف وقسوة . وكأنما يقر الباحثون مع المجمع منهج « المعجم الوسيط » ويرحبون بتجديده فى فن التأليف المعجمى ، ويرون فيه ما يسد حاجة ، وما يوجه نحو معجمات جديدة . وقد نفدت طبعته الأولى ، ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً

منقحة ومهذبة ، ومفيدة مما وجه إلى الطبعة الأولى من ملاحظات .

٧ — ولن نقف طويلا عند المعجمات الثنائية أو الثلاثية ، ولا عند معجمات اللهجات . وقد وضع من الأولى عدد غير قليل فى القرن العشرين تيسيراً للترجمة والبحث العلمى ، أو سداً لحاجة السياحة والسفر . فهناك معجمات عربية فرنسية . أو عربية إنجليزية . وبالعكس . ونحرص على أن نشير إلى (Arabischen Worterbuch) الذى وضعه زميلنا الأستاذ ڤير عام ١٩٥٢ . وعوّل فيه على العربية المعاصرة ، وخاصة العربية المصرية. أما معجمات اللهجات فلم يوضع منها فى القرن العشرين شىء يذكر ، وما ذاك إلا لأن اللهجات العربية لم تدرس بعد الدرس الكافى . وكم دعا المجمع إلى درسها ، ورحب بكل ما يبذل فيها من جهد .

وهناك نوع آخر من المعجمات عرف فى اللغة العربية من قديم ، ونعنى به معجمات العلوم والفنون ، ونستطيع أن نذكر من بينها « مفاتيح العلوم » للخوارزمى (٩٩٧ م) ، « وكشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى (١٧٤٥م) إلا أن هذه على أهميتها إنما تعبر عن الماضى ، وينقصها كثير من الوضوح والدقة ، وقل أن تتوافر فيها شرائط الفن المعجمى الحديث. ولم تقف مصطلحات العلوم والفنون عند القدر الذى جاءت به ، بل نمت نمواً كبيراً فى التاريخ الحديث ، وفى اللغات الأوربية معجمات علمية وفنية متعددة ، ولا بد للعربية أن تحذو حذوها .

وما إن اتصل العالم العربى بالنهضة العلمية الحديثة حتى بدأ ينقل عنها ، ويضيف إلى مصطلحاته القديمة مصطلحات جديدة ، ومنذ أوائل القرن الماضى حاولت مصر أداء الحقائق العلمية الجديدة بألفاظ عربية أو تركية أو فارسية ، وقد تلجأ إلى اللفظ الأجنبى فتعربه ، فرنسياً كان أو إيطالياً أو إنجليزياً . ولم يتردد الباحثون منذ النصف الأخير من القرن الماضى أن يضعوا معجمات فى بعض العلوم ، وإن لم تصل إلى المستوى المنشود . وفى القرن العشرين ظهرت معجمات أخرى أكثر

وضوحاً وأعظم دقة ، ونكتفى بأن نشير إلى اثنين منها وضعهما مجمعيان : أحدهما مصرى والآخر سورى ، ويعدان حجة فى بابهما . فأما الأول فهو « معجم إنجليزى عربى فى العلوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف ، وقد نشر عام ١٩٢٨ ، ويشتمل على عدة آلاف من المصطلحات الإنجليزية ، ومعها مقابلها وتعريفاتها بالعربية . وأما الثانى فهو « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » للأستاذ الأمير مصطفى الشهابى ، وقد أعيد طبعه غير مرة ، وفى الطبعة الثالثة (١٩٥٧) عشرة آلاف مصطلح فرنسى ، ومعها مقابلها العربى أو المعرب ، ولا يتردد المؤلف فى أن يذكر أكثر من مقابل إذا كان المصطلح العربى لم يستقر بعد .

وكان لا بد للمجمع أن يعنى بهذه المصطلحات لأنه مطالب « بأن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات العصر ومقتضياته » . وقد أنفق فى سبيلها كثيراً من وقته وجهده ، دعا إليها الخبراء والمتخصصين ، وكوّن من أجلها اللجان ، وعقد لها الجلسات . وكان حريصاً على تخير المصطلحات من بين مفردات اللغة بالاشتقاق أو النقل ، وقد يلجأ إلى التعريب . ثم أخذ ينشر تباعاً ما أقر منها فى مجلته ، أو فى مجموعات خاصة ، أخرج منها حتى الآن اثنتى عشرة . ظهرت أولاها عام ١٩٤٢ ، وفيها ٣٥٦٦ مصطلحاً ، والثانية عام ١٩٥٧ وفيها ٩٥٩٠ مصطلحاً ، والثالثة عام ١٩٦٠ وفيها ٢٣٥٧ مصطلحاً ، والرابعة فى مارس ١٩٦٢ وفيها ٢٢٥٠ مصطلحاً ، والخامسة فى يوليه ١٩٦٣ وفيها ١٦٠٠ مصطلح . وتلتها سبع أخرى يشتمل كل واحد منها فى المتوسط على ١٥٠٠ مصطلح . وفى هذه المجموعات يعرض المصطلح الأجنبى بالإنجليزية أو الفرنسية أو بهما معاً ، ومعه مقابله العربى وتعريفه فى الغالب . وفى هذا ما ييسر حركة الترجمة العلمية ، ويكون مادة المعجمات الخاصة فى العلوم والفنون . والواقع أن هذه المجموعات تنشر كما أقرت موزعة بين عدة مواد ، ومرتبة

على حسب حروف الهجاء اللاتينية .ونعتقد أنه قد حان الوقت لكى نستخلص منها مجموعات متنوعة على حسب المواد المختلفة ، أو بعبارة أخرى معجمات خاصة مرتبة ترتيباً هجائياً عربياً .

* * *

والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربى نما وتطور فى القرن العشرين ، وأخذ يحاكى نظيره فى اللغات الأوربية الكبرى أو يزيد عليه . وطرحت تلك النظرية التى كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور ، وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة ، وبكلاسيكية قديمة وكلاسيكية محدثة . وفتح باب القياس على مصرعيه فى اللغة كما فتح فى الفقه والتشريع ، ومن حقنا أن نبتكر ألفاظاً وعبارات كما ابتكر أجدادنا . وقد استعادت العربية نشاطها بعد ما مر بها من خمول ، وفيها اليوم حياة وقوة لم تنعم بهما منذ عدة قرون .

٣

المعجم الأبجدى

تأليف المعجمات اللغوية فن عرف من قديم ، وسبق أن عرضنا له فى شىء من التفصيل . ولاحظنا أن العرب خطوا فيه خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ، وبرزوا على رجال القرون الوسطى . واستطاعوا أن يوحوا بشىء إلى معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . ولكن هذا الفن لم يتوقف ، واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته فى القرن العشرين ، وظهرت له آثار واضحة فى بعض المعجمات الأوربية الكبرى كمعجم « لاروس » فى الفرنسية ، ومعجم « أكسفورد » و « وبستر » فى الإنجليزية .

ويقوم هذا الفن على دعائم ثلاث أساسية ، عناية باللغةبالوضوح والترتيب ، وأخذ بالمنهج التاريخى ، وتوسع فى الطابع الموسوعى ، ويعنينى أن أقف قليلا عند الترتيب ، وهو دعامة أولى من دعائم التأليف المعجمى . وقد مر فى العربية بأدوار مختلفة ، فرتب الخليل بن أحمد « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهرى وأكثر اللغويين إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيبهم . وفى هذا ما فيه من غموض وتعقيد ، وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها .

ولكن إلى أى مدى نستطيع أن نطبق هذا فى معجماتنا العربية ؟ هذا ما اختلف فيه الرأى فى نصف القرن الأخير ، فذهب بعض المؤلفين إلى ترتيب الكلمات على حسب نطقها ، دون مراعاة لمادة أو تصريف .

ولعل أول تجربة فى ذلك هى تلك التى حاولها قانونيان مصريان فى أوائل هذا القرن ، فقد شغلا بالمعجم العربى مدة غير قصيرة ، وهما محمد النجارى وجرجس حجار— وفى عام ١٩٣٨ بعث ورثة الأول بمشروع معجمه إلى المجمع تمهيداً لطبعه ، وطال فيه الأخذ والرد دون جدوى ، ولا تزال أصوله محفوظة بمكتبة المجمع إلى اليوم . وشاء الثانى أن يستشير المجمع أيضًا عام ١٩٥٦ فى إخراج معجمه ، فكان رد المجمع عليه صريحًا ، وهو أنه « لا يوصى بنشره فى ترتيبه الحرفى البحت الذى لم تراع فيه قواعد التصريف » .

وأخرجت المطابع اللبنانية أخيراً معجمين : أولها : « الرائد » الذى رتبت مفرداته وفقًا لحروفه الأولى . والثانى : «المنجد الأبجدى» الذى سلك الطريق نفسه تقريبًا ، وفى المعجمين معاً ، وإن اختلفت طريقتهما فى الترتيب ، جهد صادق ، ورغبة أكيدة فى التيسير . ولكن هذه التجربة الحية كشفت عن جوانب نقصها ، فكثيراً ما أغفلت مضارع الثلاثى ، وهو ليس بيسير ، ولم تذكر من المصادر والجموع إلا القليل ، ولا حاجة بى إلى أمثلة ، وعرضها بطول ، وشتتت أيضًا المادة اللغوية الواحدة ، ووزعتها فى أماكن متعددة ، فزادت حجم المعجم زيادة ملحوظة ، وحالت دون الفهم الواضح والإدراك التام لمدلول الألفاظ . وهى بهذا لا تعين على تكوين ثقافة لغوية لدى الناشئين ، الأمر الذى نحس نقصه ، وما أجدرنا أن نتلافاه ، وأن نسعى إلى تعزيز هذه الثقافة ما وسعنا . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن بعض البلاد الأوربية لا تزال تحرص على تزويد بنيها بقدر من اللاتينية ، كى يربطوا لغتهم الحية بأصولها .

وإنا لندعو دائمًا إلى التيسير ، وسبق لى أن قلت : « إن أبسط الأمور فى تبويب المعجمات أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، ومن اليسير تطبيق ذلك على العربية وإن تكن لغة اشتقاق » . ولكن لذلك حدوداً التزمناها ، وأوضاعًا وقفنا عندها ، ولم

نجاوزها بحال . وقد أخذ المجمع نفسه بترتيب الكلمات على حسب نطقها ، ولكن فى نطاق مادتها ، و « معجمه الوسيط » خير شاهد على ذلك . ونعتقد أنه يسر على الناشئين أمر الكشف فى المعجمات تيسيراً كبيراً ، ولا يحس فيه الباحث بصعوبات الاشتقاق والتصريف . ونحا « المعجم الكبير » نحوه فى الترتيب والتبويب ، وسبق اللغوى الألمانى الكبير فيشر فسلك المسلك نفسه ، وقد أخرجنا من معجمه نموذجاً صغيراً يلتزم فيه بذلك .

* * *

وعندى أن المعجم الأبجدى الصرف إن لاءم بعض الأجانب والسائحين فإنه لا يعين على تحقيق الثقافة اللغوية التى ننشدها ، ولا يسد حاجة من يريدون تذوق اللغة وفهمها على وجهها . والمعجم اللغوى لا يمكن أن ينزل عند مستوى فهرس لألفاظ ومعانيها ، أو أن يصبح أشبه ما يكون بدليل للتليفون . وهدفه الأول تكوين ملكة اللغة عند الناشئين والدارسين ، وعونهم على فهمها وتذوقها .

الباب الرابع

فى الأدب

١
الشعر

الشعر لغة القلوب ، ومرآة النفوس ، يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الإحساسات الدفينة . يخاطب الوجدان والعاطفة ، ويستلهم الوحي والخيال ، وينفذ إلى أعمق شيء في الإنسان والطبيعة . يقوم على اللفظ الرشيق ، والتصوير الدقيق ، والتشبيه البديع ، والنغم الحلو . يقول صاحب كتاب « العمدة » : إن « بنية الشعر من أربعة : لفظ ، ومعنى ، ووزن ، وقافية ، وما سمى الشاعر شاعراً إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراع صورة ، ولا ابتداع لفظ ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً » . ويقول أيضاً : « الشعر ما اشتمل على الاستعارة الرائعة والتشبيه الرائع ، وما سوى ذلك فوزن » .

وللشعر فى الحقيقة جانبان لا وجود له بدونهما ، وهما الخيال والموسيقى . فبالتخييل يخرج الشاعر على المألوف ، ويأتى بالغريب والطريف . وقديماً تحدثوا عن شيطان الشعر ، وليس شيئاً آخر سوى تلك القوة الخالقة المبدعة ، التى عدّها أفلاطون قوة إلهية مقدسة ، وسما بها بعض المحدثين إلى مستوى المعجزة . والأخيلة الشعرية هى التى تهز الشعور والوجدان ، وتسبح بنا فى عالم آخر غير عالم الواقع . وتردد كثيرون فى أن يعدوا النظم التعليمى شعراً ، لأنه لا خيال فيه ولا تصوير ولا تشبيه . وليس هذا الخلق والإبداع فى متناول الجميع ، بل لا بد له من ملكة واستعداد خاص ، ومن لا موهبة عنده أولى به ألا يغامر فى هذا المضمار .

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
هوت به إلى الحضيض قدمه

والشعر وثيق الصلة بالموسيقى ، تطرب النفوس لوزنه ، وتهتز الأجسام لنغمه . وأغلب الظن أنه نشأ أول ما نشأ فى ثوب الغناء ، يترنم به الفرد فى وحدته ، وتردده الجماعة فى جدها ولهوها ، وقد قيل : « الشعر موسيقى المجاهدين فى سبيل المجد ، وحداء المجتهدين فى ركب الحياة » .

ويحاول الموسيقيون دائماً أن يوقعوه على سلمهم ، ويؤدوه بآلاتهم ، وما التلحين إلا صوغ للشعر صياغة موسيقية . وبما فيه من موسيقى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفنون الجميلة ، وينفذ إلى القلوب ، ويزداد تأثيره فى النفوس ، وإن فاته الوزن والنغم ، فلا سبيل إلى التفرقة بينه وبين النثر .

قيوده وضوابطه :

لكل لغة شعرها ، وهو قديم قدم اللغات نفسها . ومن المرجح أنه يبدأ شعبياً سهلا ، ثم يفتن فيه الموهوبون والمتخصصون . ويوم أن يصبح فناً وصنعة ، توضع له قيود وضوابط تقسو حيناً وتلين حيناً آخر . والفن فى حركة دائمة بين الجمود والطلاقة ، بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع . وأكثر ما تنصب هذه القيود على الصور الشعرية من جانب ، والوزن والموسيقى من جانب آخر . ودون أن ندخل فى تفاصيل ذلك ، ونعرض لكل من عنوا به ، نكتفى بأن نشير إلى رجلين اثنين : أرسطو بين اليونان ، والخليل بن أحمد بين العرب .

وأرسطو رائد فى أكثر من ميدان ، بدأ دراسات لأول مرة ، وأخرجها شبه كاملة ، هو رائد بلا شك فى علم المنطق ، ويمكن أن يعد بحق رائداً فى دراسة الشعر . وضع فيه كتاباً قدر له نجاح كبير ، وأثر فى الآداب الأوربية على اختلافها . ترجم إلى عدة لغات من بينها العربية ، وشرح غير مرة ، وممن علقوا عليه ابن سينا وابن رشد . وعلى أساسه قامت

الكلاسيكية فى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، واعتبر دستوراً للشعر والفن المسرحى .

ويرى أرسطو أن دعامة الشعر التخيل ، وتحقيق متعة روحية هى متعة التصوير والوصف . ولا بد فيه من انسجام وإيقاع ، فمادته مستمدة من عبقرية الشاعر واختراعه ، وقوام لغته الوزن والموسيقى . والشاعر حر فى اختيار أوزانه ، ولكن لا بد له من وزن على كل حال . ويقول بنظرية المحاكاة التى ترمى إلى رد الشعر إلى شىء من الواقع ، وإن تعارضت مع فكرة التخيل التى أكدها فى أكثر من مناسبة .

والخليل بن أحمد رائد آخر من رواد الفكر الإنسانى ، ذو عبقرية ممتازة وأصالة نادرة ، فهو المؤسس لفن المعاجم العربى ، ويعد بحق مؤسساً لعلم النحو ، أخذ عنه سيبويه وعول عليه . وهو الواضع لعلم العروض الذى لا نزاع فى أنه علم عربى ، فلا نظير له فى اللغات السامية القديمة ، ومن الخطأ أن يقال إن فيه محاكاة لنماذج من الشعر اليونانى . وإنما عول فيه الخليل على ذكائه الحاد ، وأذنه الموسيقية ، وحفظه للكثير من الشعر العربى . ويظهر أنه كان رياضياً ماهراً ، فأقام العروض على أساس هندسى ، وربط بحوره بدوائر معينة . وكان لهذا العلم أثر كبير ، لا فى العربية وحدها ، بل امتد إلى لغات أخرى كالعبرية والفارسية والتركية . وإذا اعتبرنا الموشحات الأندلسية امتداداً له ، استطعنا أن نقول إنه أثر فى بعض اللغات الأوربية .

ذهب الخليل إلى خمسة عشر بحراً أقامها على خمس دوائر ، ورأى فيها ما يجمع أوزان الشعر العربى . ويظهر أنه بنى حصره على أساس نظرى أكثر مما استمده من الواقع ، فمن البحور التى قال بها ما أملاه منطق الدوائر الخمس ، ومنها ما يمكن رد بعضه إلى بعض . وبعده بقليل استطاع الأخفش الصغير أن يضيف إلى بحوره بحراً جديداً ، هو : المتدارك .

وفى القرن الرابع الهجرى أحدث الجوهرى بعض التعديلات : فحذف تفعيلة من تفعيلات الخليل الأصلية . واستمعنا فى مؤتمر من مؤتمرات المجمع إلى بحث فى « ميزان البناء » . وهو وزن خفيف يقوم فى الغالب على تكرار تفعيلة واحدة فى أشطر قصيرة . ظهر فى العراق منذ ثلاثة قرون ، والعراقيون شعراء مجيدون يحفلون بالوزن والنغم . وفوق هذا ، فى الزحاف والعلل ما ينتهى بالبحور المعروفة إلى ٨٥ صورة ، تتنوع بها الأوزان أيما تنوع ، ومهما يكن من أمر فعلم العروض يكشف عن الجانب الهام فى الشعر ، وهو الوزن والموسيقى .

تطوره :

لسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الشعر فى تطور مستمر ، يتطور بتطور اللغات نفسها من جيل إلى جيل ، بل من شاعر إلى آخر . يتطور فى لفظه ومعناه ، كما يتطور فى أخيلته ومبناه ، وهو أشبه ما يكون بلوحة متحركة يرسم عليها الفنان ما يعن له من صور وألوان ، ويعنينا أن نعرض لشىء من تطور وزنه . والأوزان الشعرية متنوعة متجددة فى اللغات كلها ، وهذا التنوع ملحوظ فى الشعر العربى . والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة ، أما الشعراء فيعتدون بعبقريتهم ، ويحرصون على حريتهم فى تجديدهم واختراعهم . ومنهم من لا يعرف العروض مطلقاً ، وقل من يستحضره حين ينظم أو يترنم . وأعلن أبو العتاهية من قديم أنه فوق الأوزان والبحور ، وأباح أبو تمام لنفسه الخروج على البحور المألوفة ، ولوحظ على البحترى أنه كثير الزحاف ، ولم ينتقص ذلك شيئاً من جمال شعره . وقيل خطأ إن نظم المتنبى وأبى العلاء لا يعد شعراً ، لأنهما لا يلتزمان الأساليب القديمة .

وعنى ابن خلدون بتطور الشعر العربى ، ووقف عليه فى « مقدمته » فصلا طويلا جاء دليلا جديداً على أنه جدير بأن يسمى مؤسس علم

الاجتماع . فقد عالج فيه الشعر على أنه ظاهرة اجتماعية تتأثر بتغير الأحداث السياسية والاجتماعية ، وتخضع للعوامل الحضارية والعمرانية . وأدخل فيه الشعر الشعبي الذى يعد باباً هاماً من أبوابه. يجيء على الفطرة، ويعبر عن الإحساسات فى غير تكلف . ويتغنى به الناس فرادى وجماعات . وعنده أن البلاغة لا تتوقف على الإعراب ، والمهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومن الشعر الشعبي ما يسمو إلى المستوى البلاغى وإن لم يخل من اللحن . ولم يستوعب العروضيون النغمات كلها، وباب الجديد فيها فسيح ومفتوح دائماً . والموشحات ذات نغمات جذابة ، وهى شعر حضرى خفيف مرقص ، ابتدعه الأندلسيون وتفننوا فيه .

وحدثنا الدكتور طه حسين عن فن من فنون الشعر يتطور بأعين الناس، وهو الرجز. فأشار إلى أنه عرف منذ الجاهلية، وعمر إلى اليوم ، ولكنه استخدم فى حفظ اللغة ، واتخذ أداة للشعر التعليمى وديواناً للحكمة متخذاً أشكالا وصوراً شتى . قد لا يحفل به الشعراء ولا يقفون عنده، وهو قبل كل شيء أكثر فنون الشعر ملاءمة للغناء الشعبي .

* * *

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن قضية الشعر الحر غير ذات موضوع ، إذ ليس ثمة من ينكر على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع، ولا من يضيق عليه حريته ما دام لا يحول الشعر إلى نثر مرسل أو مقيد . ولقد جمعتنى فى بغداد أخيراً ندوة شعرية، ودار فيها حوار طويل حول هذا الموضوع ، ونعمنا فيها بنقاش ممتع خرجنا منه بأمرين هامين ، فاتفقنا أولا على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الشجى ، ولاحظنا ثانياً أن أدعياء الشعر لا يكاد يخلو منهم عصر ، يحاولونه ولا قبل لهم به فيسفون ، ويأبون إلا أن يعدوا إسفافهم عملا فنياً . ودنيا الشعر — كما قيل — كدنيا الفنون لا يخلد فيها إلا الأعلون .

٢

القصة

لقد كنا نتوق منذ فجر هذا القرن إلى أدب قومى تمليه آمالنا وأمانينا ، ويترجم عن عواطفنا وشعورنا ، ويحلل عاداتنا وتقاليدنا ، ويصور بيئتنا ووطننا ؛ أدب يحيى معالم الماضى ويبرز مظاهر الحاضر ، ويرسم أهداف المستقبل ؛ أدب له خصائصه ومميزاته ، وشخصيته ومقوماته بحيث يذكر إلى جانب الآداب الأخرى ، فيتحدث عن أدب مصرى كما يتحدث عن الأدب الفرنسى والإنجليزى . أدب يعيد إلى العربية مجدها وعزتها ، فيؤخذ منها كما تأخذ من غيرها ويترجم عنها كما يترجم إليها .

هذه هى الأمنية ، ويسعدنا أن نلاحظ — ولما يمض عليها نصف قرن — أنه قد تحقق منها قسط كبير . فإنتاجنا الأدبى خصب متنوع قد تناول أبواب الثقافة المختلفة ، من علم وفلسفة وتاريخ واجتماع ، واقتصاد وسياسة . كتب بلغة العصر وروح العصر ، فاستساغته النفوس وامتزج بالأفئدة . وبلغ بعض كتابنا وشعرائنا الذروة أو دنوا منها ، فأضحوا ولهم عشاق وأتباع فى مختلف الأقطار العربية ، بل لقد امتد أثرهم إلى بعض العواصم الأوربية . ونظرة إلى الوراء قليلا كافية للتدليل على ما خطونا فى هذه السبيل من خطوات .

وليس شىء أحب إلى حملة راية النهوض الأول من أن يروا فى الميدان الجنود والأنصار ، ففى ذلك ما يطمئنهم على ازدهار غرسهم ونجاح دعوتهم ، وما يشعرهم بأن الأمانة التى سهروا عليها قد لقيت من يحسن أداءها ، وأن الرسالة التى اضطلعوا بها قد صادفت من يعرف كيف

يتعهدها . وفى مسابقات المجمع الأدبية ما يكشف عن جيل جديد يبعث على الأمل ويخلق الثقة فى المستقبل . وإذا كان بعض شباب المتأدبين تنقصه الإجادة ولا يعنى بالروية والإتقان ، فنى مثل هذه المسابقات ما يحفز الهمم ويستثير النفوس .

• • •

ولا شك فى أن القصة باب هام من أبواب الأدب ، كان لها حظها فى الآداب القديمة ثم انتهت إلى منزلة سامية فى الآداب الحديثة.فطغت على الرسائل والمقالات ، وحلت محل القطع الوصفية والاعترافات ، وتكاد تستأثر بالأدب المنثور المعاصر . وإذا كان المسرح قد أخذ بيدها بالأمس فإن السينما تفتح اليوم أمامها آفاقاً فسيحة . وإذا كان الخيال والخرافة قد غذتها قديماً بغذاء شهى جذاب ، فإن الرحلة والأسفار تمدها الآن بالطريف من أخبار القبائل والشعوب ، والغريب من وصف الكائنات والبقاع .

تساير القصة الناس فى طباعهم ، وتجرى مجرى إلفهم وعاداتهم ، للذلك صادفت هوى من نفوسهم ، وأضحت من أشد أنواع الأدب تأثيراً فى الجماهير . فيها مناجاة نفسية ، وتخفيف للوعة ، إن كانت قد أملتها ظروف شخصية ، فإنها لا تلبث بمجرد وضعها أن تصبح قدراً مشتركاً وملكاً مشاعاً يتبناه كل من اهتدى إليه . وفيها كشف عن مكنون الصدور وخفى الطباع ، يكشف الكاتب فيها نفسه لنفسه أو عن النفس البشرية لقرائه . ويلمس القارئ فيها أموراً كان يتوهمها دون أن يقف على كنهها أو يجد السبيل إلى التعبير عنها . ومع هذا تحمل شيئاً من طابع السرية وإن نشرت وأذيعت بين الناس ، لهذا يحرص قارئها على أن يختلى بها ويفرغ لها على انفراد . وفيها سحر قد ينسى المرء من حوله ، ويصرفه عن طعامه وشرابه ، ويجد فيها من المتاع والأنس ما لا يجده فى حلم لذيذ أو مجلس لم يكدر صفوه مكدر .

والقصة أداة نافعة من أدوات نشر المعرفة والثقافة ، ساغ موردها ، وكثر قراؤها ، فنقلت إليهم فروعاً شتى من العلم والفلسفة ، وصورت لهم آيات الفن والحضارة . وهناك أشخاص يرجع قسط كبير من ثقافتهم إلى ما قرءوا من قصص وروايات ، وهناك آراء ونظريات خدمها الأدب القصصى وساعد على نشرها أكثر مما خدمها الباحثون والعلماء . وفى كلمة واحدة يمكن أن يقال إن القصة وسيلة من وسائل اشتراكية العلم وجعله فى متناول الجميع .

وللأدب العربى القديم جانبه القصصي ، وإن كان دون ما يلحظ فى الآداب القديمة الأخرى . ومن يدرى ، فقد يكون القصص الجاهلى قد ضاع فيما ضاع من آثار أدبية أخرى ، على أن كتب الأدب الكبرى كالأغانى والأمالى والعقد الفريد تحتفظ بأقاصيص مختلفة ، والمعلقات فى قسط كبير منها قصص منظوم . وما إن اختلط المسلمون بالأمم الأخرى حتى تأثروا بقصصها ، كما تأثروا بألوان ثقافتها الأخرى ، وكتاب « كليلة ودمنة » ، و« ألف ليلة وليلة » من أوضح الأمثلة على ذلك . وقد أنشأوا ضروباً جديدة من الأدب القصصى ، كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمتها « مقامات » بديع الزمان والحريرى ، و « رحلة » ابن جبير وابن بطوطة .

غير أن القصة مع هذا لم تبرز فى الأدب العربى بروزها فى الآداب الحديثة . ولهذا قام أدبنا القصصى المعاصر أول نشأته على التقليد والمحاكاة والنقل والترجمة . وإذا استثنينا « حديث عيسى بن هشام » ، وجدنا أن القصص والروايات التى صادفت نجاحاً فى العقدين الأولين من هذا القرن إنما كانت فى أغلبها مترجمة . ثم أخذت القصة المصرية ترسم لنفسها طريقها ، وتستكمل شخصيتها ، فخطت الأقصوصة رويداً رويداً إلى أن أضحت قصة ، وقرأنا من القصص المصرية المبتكرة ما لا يقل روعة وبهاء عن بعض القصص الأجنبية المترجمة ، وأملت عاداتنا وتقاليدنا وماضينا وحاضرنا على الكتاب قصصاً فيه نقد وتحليل وعظة

وحكمة . وبدا وادى النيل فى سمائه الصافية وشمسه الزاهية وطبيعته الهادئة على صورة لوحات فنية أحكم القصصيون صنعها وأجادوا التعبير عنها .

وبذا تعدد القصص المصرى وتنوع ، فمنه المسرحى وغير المسرحى ، والخيالى والواقعى. ونحا القصاص مناحى شتى . فمنهم من أولع بالحوار يفضله على أى أسلوب آخر ، ومنهم من اختار السرد والرواية المتصلة ، ومنهم من جمع بين هذا وذاك . ويبدو على بعضهم أنه إلى النقد الاجتماعى أميل ، وفى مناقشة العادات والتقاليد أرغب ، وعلى بعض آخر أنه بالتاريخ ألصق ، يستمد منه مادته ويرسم فى ضوئه أبطاله .

ولا أدل على هذا التنوع من تلك المجموعة التى قدمت للمجمع مرة فى مسابقة القصة . فقد تقدم إليه فى القصة وحدها نحو عشرين متسابقاً ، وبأيديهم ما يقرب من الثلاثين قصة . وواضح أن هذا الرقم لا يمثل كل إنتاجنا القصصى فى الفترة التى حددت ، إلا أن له على كل حال دلالته ، خصوصاً والمتسابقون فى أغلبهم شباب أشربوا حب القصة وتعلقوا بأدبها . وفى إقبال الشباب على القصة ما يبعث على الأمل فيها ويؤذن بمستقبلها الزاهر .

* * *

ويعنيني أن أقف عند قصتين اثنتين من هذه القصص الثلاثين : أولاهما « على باب زويلة » للأستاذ محمد سعيد العريان ، والأخرى « خان الخليلى » للأستاذ نجيب محفوظ .

فأما الأستاذ العريان فقد تخرج فى مدرسة دار العلوم وتفرغ لتدريس اللغة العربية ، وعنى بتصحيح العبارات وتقويم الأساليب . ويظهر أنه أحس أن مكتبة الطفل المصرى فقيرة ، وأن وسائل سمره وتسليته محدودة ، فاتجه مع بعض زملائه إلى وضع كتب تلائمه ، ووجد فى القصة خير وسيلة لتسليته . وكان من نتائج ذلك « سلسلة القصص المدرسية » ، التى ظهر منها حتى الآن أربع وعشرون قصة فى أسلوب سهل مبسط .

وإلى جانب مساهمته فى هذه السلسلة ، استقل بمجموعة أخرى قدم فيها اثنتين وثلاثين قصة صغيرة تحت عنوان : « من حولنا » ، وهى أقرب إلى الأقصوصة منها إلى القصة ، تعرض صوراً مصرية ، وتعالج بعض مظاهر حياتنا العامة ، وتتجه نحو الكبار فتقابل « القصص المدرسية » التى وضعت خصيصاً للصغار .

غير أن إنتاجه القصصى الهام قد نحا منحى آخر ، فاتخذ من التاريخ مادته ، وعالج بعض أشخاصه وأحداثه ، يتحدث عنها بأسلوبه ويصورها بفنه . والقصة فى حقيقتها تاريخ للحاضر أو للماضى ، تحكى الواقع وتبرز معالمه ، وتمزج بين الحقيقة والخيال . وقد شاء الأستاذ العريان أن يقف عند التاريخ المصرى الإسلامى ، فكتب أولا « قطر الندى » التى تصور عصر الدولة الطولونية منذ بدئه حتى نهايته ، ثم أتبعها « بشجرة الدر » التى جاءت عنواناً صادقاً لعهد الدولة الأيوبية .

وها هو ذا يقدم لنا أخيراً « على باب زويلة » التى تعرض لقانصوه الغورى وخليفته طومان باى ، فمن الدولة الطولونية إلى الأيوبيين ، ومن هؤلاء إلى المماليك . ولا شك فى أن القصة الأخيرة تفضل سابقتيها ، فهى أغزر مادة ، وأدق تحليلا وأعظم عناية بالتاريخ ودقائقه . يؤخذ القارئ بأسلوبها العذب وعباراتها الجزلة ، ونسجها المحكم . إلا أنها من ناحية أخرى كثيرة الشخصيات بحيث عز على كاتبنا أحياناً أن يوفيها جميعاً حقها من التصوير والتحليل ، ومتلاحقة الحوادث بحيث يخشى أن تتداخل ويطغى بعضها على بعض .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظة ، فإن الأستاذ العريان فى صفاء أسلوبه وقوة تعبيره وصدق تصويره واندماجه فى جو الوقائع التى يريد إخراجها ، قد توافر لديه كثير من وسائل الكاتب القصصى ، ولهذا استحق جائزة المجمع .

* * *

واما الأستاذ نجيب محفوظ فقد نشأ نشأة فلسفية . وتخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، إلا أن أدب القصة قد بهره – فيما يظهر – فشغف به ووجد فيه من رقة الحواشى ما كاد ينسيه جفاف الفلسفة وقسوتها . على أنه يأبى أحياناً إلا أن يفلسف القصة ، ويسبغ عليها ألواناً من النظريات الأخلاقية والآراء السيكولوجية .

ولأمر ما قدر له أن يبدأ إنتاجه القصصى بما يصح أن نسميه القصص الفرعونية ، فقد وضع منها ثلاثاً متوالية هى : « عبث الأقدار » ، و « رادوبيس » و « كفاح طيبة » ، وإنها لبداية موفقة سما فيها خياله سموا ملحوظاً ، وظهر استعداده القصصى واضحا ، وأفاد كثيراً من كتاب « مصر القديمة » الذى سبق له أن ترجمه . ولانزاع فى أن هذه القصص الثلاث تربطنا بالتراث الفرعونى ، وتكشف عن دعامة من دعائم الشعور القومى ، وتغذينا فى ناحية يسرنا أن ندخل فى صميمها ونستمتع بها .

ولا أظن أن كاتبنا يسرف أبداً إن عاد إليها ، وعاود الكتابة فيها ، وتتبع شتى أطرافها .

ولكنه شاء أن ينتقل نقلة واسعة ، فرحل من مصر القديمة إلى مصر الحديثة ، وجاوز طيبة ومنفيس إلى الفجالة والدق . وألف فيما يمكن أن نسميه « القصص العصرية » ثلاثاً أخرى هى : « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » . وإذا كان يتحدث فى القصص الأولى عن الماضى ويحكى مجد الفراعنة ، فإنه فى الأخيرة ينغمس فى حياتنا الاجتماعية الحاضرة ، فيكشف عن كثير من خباياها ، ويعرض منها صوراً تقرب من الواقع كل القرب . ففيها دراسة واقعية تحليلية لضرب من الأخلاق والعادات فى مختلف البيئات ، وتصوير صادق لبعض التقاليد .

و « خان الخليلى » بوجه خاص تعرض أمامنا أياماً عاشها كثيرون

منا ، وتستعيد ذكريات نشعر إزاءها بشيء من العذوبة . وفيها مايدل على أن الكاتب شرقي صميم في شرقيته ، قاهري ملم تمام الإلمام بعادات مدينته . هذا إلى أنها ترمز للتطور الاجتماعي الذي تمر به ، وتشير إلى مرحلة الانتقال الحضاري التي نجتازها .

كل ذلك في خيال بديع وتصوير دقيق وتحليل نفسي بارع . وإذا كان في أسلوب المؤلف ما يدعو إلى نقد أو ملاحظة ، فإن فنه القصصي مبعث تقدير واستحسان ، وإذا كانت نشأته الفلسفية قد باعدت بينه قديماً وبين القراءة الأدبية المستفيضة ، فإن واجبه اليوم وقد تفرغ للأدب القصصي أن يستكمل كل وسائله وأدواته . ومهما يكن من أمر هذه الناحية فإن الأستاذ نجيب محفوظ قد أقام الدليل على مقدرته القصصية ، وعلى أنه من كتابنا القصصيين الممتازين ، ولهذا استحق جائزة المجمع وتقديره .

٣

الأدب العربى تجاه مشكلتى اللغة والحرف[(١)]

١ ــ للغة سلطان وقداسة تستمدهما من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض .

ولقد أفادت العربية كثيراً من جانبيها الدينى والاجتماعى . واكتسبت مناعة وقتها حملات الخصوم والأعداء ، وحمتها من جموح التغيير والتبديل . وبقيت على الدهر بحيث أصبحت لغة قديمة وحديثة معاً ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . إلا أن هذه القداسة كثيراً ما وقفت فى طريق الإصلاح والتجديد ، واعترضت سبل النمو والتطور . فقيل بالحرام والحلال فى أمور تتصل بمتن اللغة وأساليبها وكتابتها ورسمها ، كما قيل بهما فى الحكم على أقوال الناس وأفعالهم . ومع هذا فالزمن يسير ، ولا بد أن تسير اللغة معه ، وربما كان لدعوى القداسة والحرمة أثر فى التأنى فى التجديد ، والتروى فى الإصلاح ، مما يربط الحاضر بالماضى ويساير التطور دون طفرة .

٢ ــ والأدب حياة اللغة ، يساهم فيه المتحدث والكاتب ، الناثر والشاعر ، الخطيب والصحفى ، المذيع والممثل ، الأديب والعالم ، الشعب والخاصة ، فهو جملة الإنتاج الأدبى فى لغة ما . يتأثر ــ دون نزاع ــ بالأحداث السياسية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ، ويصور الحياة

---

(١) كلمة ألقيت بمؤتمر الأدب العربى المعاصر فى روما عام ١٩٦١ فى شيء من التعديل .

الدينية والأخلاقية . يبتلى بالجمود أحياناً ثم ينشط ويتحرك . يأخذ ويعطى ، فيتغذى من الآداب الأجنبية ويغذيها . وهو متنوع ، يختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، فهناك أدب قديم وأدب حديث ، أدب ريفى وأدب حضرى ، أدب ديموقراطى وأدب أرستقراطى .

والأديب الحق مبدع ومبتكر ، بقدر ما هو مقلد ومحاك ، يبتكر ألفاظاً وأساليب ، كما يبتكر أفكاراً وأخيلة . ينهج نهج القدامى ويحذو حذوهم ، فى الوقت الذى ينافس فيه المعاصرين ويحاول أن يجدد مثلهم . وأنصار الأدب القديم أنفسهم لا يرضون أن تنمحى شخصيتهم ، وتفنى أساليبهم فيمن سبقهم . وأعز شىء لدى الأديب حريته ، فيحرص على أن يكون حراً فى تفكيره ، يرسل أحاسيسه ومشاعره كما تبدو له ، حراً فى تعبيره يصوغ معانيه على النحو الذى يروقه . ولا يضيره أن يخرج أحياناً على بعض قيود النحو واللغة ، وربما فتح خروجه باباً لنحو ولغة جديدة .

وهكذا كان الأدب العربى ولا يزال ، تنوع بتنوع العصور ، وسار بسير الزمن ، علا وهبط ، قوى وضعف ، ومن الخطأ أن تقف به عند عصر بعينه ، أو أن نقصره على بيئة بذاتها . تأثر بالآداب الأجنبية وأثر فيها ، وكانت له حياة مستقلة وتاريخ متصل ، ويربأ أدباء العرب بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد نقلة أو محاكين ، ويأبون إلا أن ينالوا حظهم من الأصالة والابتكار .

٣ — الأدب مادة اللغة ، منه يستمد متنها ، وعليه يقوم نحوها وصرفها . وقد عنى الرواة قديماً بجمعه كما عنوا بجمع اللغة نفسها . وأبلوا فى ذلك بلاء حسناً ، وإن لم يسلموا من الحشو والخطأ ، ولا سيما أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعيشون قبائل وجماعات ، لكل قبيلة لهجتها ونطقها ، وظروفها وبيئتها ، وأوضح ما يكون هذا الخلاف بين القبائل

العدنانية فى الحجاز والقحطانية فى اليمن ، فكانت تستعمل الكلمة الواحدة فى عدة معان ، أو يعبر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة باختلاف البيئات ، مما أدى إلى تباين المعانى للفظ الواحد وكثرة المترادفات ، وتعدد القراءات . وما إن فتحت الأقطار شرقاً وغرباً ، وتوطدت الصلة بالثقافات الأجنبية ، وبسطت الحضارة الإسلامية ألويتها . حتى أخذت العربية تتغذى بغذاء جديد لم يأنفه العرب ولم يرهبوه . وكانت ثقتهم بأنفسهم كفيلة بأن يأخذوا الجديد على صورته ، أو يؤقلموه ويصوغوه نزعاً على حسب قواعدهم . واستمروا كذلك حتى جاء عصر الركود ، فكان الجمود والإفلاس والتحريم والتحليل . ويوم أن بزغ عصر النهضة الحديثة ، استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تتقبل الألفاظ والتراكيب الجديدة غير هيابة و لا مترددة .

عنى العرب عناية بالغة بجمع لغتهم وتسجيلها ، فتلقفها الرواة من البادية ، وأعدوا بذلك المادة الضرورية لوضع المعاجم اللغوية . ولا نظن أن لغة ما — قديمة أو حديثة — توافر لها من المعاجم ما توافر للعربية .

ولا شك فى أن هذه المعاجم غزيرة المادة كثيرة المعلومات ، وستبقى على الدهر معيناً لا ينضب لتوضيح غريب الكلمات وغامض النصوص . ولكنها تلتقى فى عيوب مشتركة ، من غموض فى الشرح ، وخطأ بعض التعاريف ، ولا سيما أنها قد عرضت لمواد تبعد نوعاً ما عن اللغة كالتاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات ، وقد تغير اليوم وجه العلم . وكثيراً ما كرر بعضها بعضاً دون تنقيح أو تهذيب ، ويصرح صاحب لسان العرب ، أكبر معجم وصل إلينا ، بأنه لم يصنع شيئاً أكثر من أنه جمع ما ورد فى تهذيب الأزهرى ، وصحاح الجوهرى ، ومحكم ابن سيده ، وحواشى ابن برى على الصحاح ، ونهاية ابن الأثير . وفوق هذا منهج هذه المعاجم ناقص ومعيب — ناقص لأنها وقفت باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثيراً من معالم الحياة والتطور . فهى توضح العربية فى الجاهلية

وصدر الإسلام ، وتكاد تنكر ما عداها ، وبذا لا تمثل عصور اللغة كلها ، ولا العصر الذى وضعت فيه . ومنهجها معيب أيضًا لا تتوافر فيه شرائط فن المعاجم الحديثة من حسن الترتيب ، ووضوح الشرح ، ودقة المعنى ، والاستعانة بالصور والخرائط واللوحات . فى الرجوع إليها عناء ومشقة ، وفى عرضها حشو واستطراد ، وأصبحت لا تواجه تمامًا حاجة العصر ومقتضياته .

ولقد حاول بعض اللغويين منذ أخريات القرن الماضى تدارك هذا النقص ، فوضع البستانى « محيط المحيط » ، والشرتونى « أقرب الموارد » ، والأب لويس معلوف « المنجد » . وهم — فيما يبدو — متأثرون بالمعاجم الغربية الحديثة ، و«المنجد» بوجه خاص محاكاة صادقة «لمعجم لاروس الصغير» . وهو فى الواقع قاموس عملى ، سهل المأخذ ، غنى بوسائل الإيضاح ، ولا أدل على ذلك من أنه أعيد طبعه ست مرات فى أقل من عشرين سنة ، وفى الطبعة الأخيرة قسم كبير فى الأدب والعلوم ، على غرار «لاروس» ، إلى جانب القسم اللغوى . ولكن هذه المعاجم الحديثة لم تستطع التخلص من قيود الماضى ، ولم تجرؤ على أن تسجل شيئًا من لغة القرن العشرين ، واكتفت بأن تلخص المعاجم القديمة فى ترتيب أحسن ومنهج أقوم .

٤ — ويوم أن أنشىء «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة عام ١٩٣٤ نص فى مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه — « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » ، وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية . وكان من بين أعضائه المستشرق الألمانى « فيشر » الذى عنى بالمعجم العربى منذ أوائل هذا القرن ، ورغب فى أن يخرجه على غرار معجم أوكسفورد التاريخى فيعمد إلى النصوص لتوضيح معانى الكلمات ، ويتتبع تاريخها وتغير مدلولها ، وهى محاولة شاقة ، وشبه متعذرة الآن على الأقل ، لأن العربية أطول تاريخًا من الإنجليزية ، وأكثر مصادر ، ومن بين مصادرها ما فقد

أو ما لا يزال مخطوطاً. ومع هذا بذل « فيشر » فيها جهوداً مضنية ، وشاء أن يتوجها بأن يخرج « معجمه » تحت كنف المجمع اللغوى ورايته ، ولم يتردد المجمع فى أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمده بوسائل العون المختلفة . إلا أن الحرب العالمية الثانية وقفت فى طريقه . ولم نلبث أن فقدناه بعدها بقليل ، وقبل أن يخرج « معجمه » إلى النور . ولم يبق من جهود أربعين سنة إلا جزازات غير مكتملة وغير مستوفاة ، يحتفظ بها المجمع فى قاعة خاصة تحت تصرف الباحثين .

اضطلع المجمع إلى جانب هذا بوضع « معجم كبير » يستوعب اللغة فى مختلف عصورها ، ومن أهم ما قرر فى مقدمته أن للغة ماضياً وحاضراً ، فلها ماضيها الموروث ، وحاضرها الحى الناطق ، ولا بد أن يلاحظ ذلك فى وضع معجم جديد ، فيستشهد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذى أنشئ فيه ، وتثبت الألفاظ الطارئة التى دعت إليها ضرورات التطور ، وفرضها تقدم الحضارة ورقى العلم . ولا يزال المجمع يوالى جهوده لمتابعة إخراج هذا « المعجم الكبير » . (وقد أخرج منه الجزء الأول هذا العام سنة ١٩٧٠) .

عنى المجمع أيضاً منذ زمن بوضع « معجم وسيط » ، سهل التناول ، ينتفع به طلاب العلم وييسر عليهم تحصيل اللغة ، وتوفر له ما أراد ، وظهرت طبيعته الأولى ، ثم عُدِّلت ونقحت ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً . وقد أخذ بحظ وافر من فن المعاجم الحديثة ، فهو محكم الترتيب والتبويب ، يسير الشرح ، دقيق التعاريف ، يكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة ، فى غير غموض ولا تعقيد . يسجل ما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، والمصطلحات العلمية الشائعة ، ويقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، ويهجر الحوشى والغريب .

فالمعجم العربى فى تجدد وتطور شبيه بتطور المعاجم الغربية ، يأخذ بأحدث مبادئ الفن المعجمى وييسر اللغة ، يراد به أن يضع ألفاظ

القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، وأن يهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين العصور اللغوية المختلفة ، وفي هذا ما يثبت أن في العربية وحدة تضم أطرافها ، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه في قالبها . وقد بذلت في ذلك جهود لا بأس بها ، وظهرت معاجم مصطلحات إلى جانب المعاجم اللغوية، ولكن لا يزال الأمر يتطلب جهوداً أخرى وقسطاً أوفر من الجرأة والتحرر .

٥ ـ اللغة تعبير عن وجدانات وأفكار بواسطة أصوات ودوال أقرها المجتمع وأخذ بها، فعناصرها وجدان وعاطفة، فكر ورأى ، بيئة ومجتمع ، أو إن شئت مدلولات ودوال وكلها متغيرة ومتحركة ، فالوجدانات والعواطف في نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات ، والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع . والحياة الاجتماعية في تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة في التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى موغلة في الحضارة والمدنية ، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها ، وتنوعت اتجاهاتها وكثرت حاجاتها . وأضحى لزاماً أن تسايرها في كل ذلك لغتها ، فتزيد مفرداتها ، وتتنوع تراكيبها ، وتسمو أساليبها ، وتتباين فنون القول فيها .

ووسائل إنهاض اللغة وتطويرها كثيرة ، أخصها الوضع اشتقاقاً وتجوزاً وارتجالا ، إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس ، تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين ، التسليم بالتعريب والاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة . وقد أخذ قديماً بمختلف هذه الرسائل فاستباح العرب الوضع في مختلف صوره ، وقبلوا كلمات أجنبية أضافوا بها ثروة جديدة إلى لغتهم ، فمثلا يستعمل « الأعشى » كلمة « شاهنشاه » ، وامرؤ القيس كلمة « السجنجل » ، وفي الإمكان حصر الكلمات المعربة فيما وصلنا من أدب جاهلي . وفي « القرآن » كلمات معربة كثيرة ، مثل زنجبيل وسلسبيل . أما الاشتقاق والقياس فلم يكن هنالك

ما يقيدهما ، وكان العربى ينطق على سليقته فكان نطقه حجة ، وساعد الفتح والاختلاط على التعريب والاشتقاق معًا ، ودفعت إليهما الترجمة وانتشار العلم . وهناك ألفاظ عربية أو معربة إسلامية لم تعرف فى الجاهلية من قبل ، ولم يستنكرها أحد أو يرفضها . ويوم أن ضاقت العقول بدأ التحليل والتحريم ، فأصبح التعريب ممنوعًا ، وحرم الوضع على المتأخرين .

ولقد استطاع « مجمع اللغة العربية » أن يفك كثيراً من هذه القيود ، ويطلق سراح اللغة ، فقال بالتضمين ، والنقل ، والمجاز ، والتعريب ، وأجاز الاشتقاق من أسماء الجواهر والأعيان ، كما أجاز النسبة إلى جمع التكسير . وتوسع فى المصادر الصناعى ، وأقر صيغًا للدلالة على الحرفة والمرض والصوت . وفتح فى اختصار ، باب الاجتهاد فى اللغة ، وكان موصداً من قبل . ولم يقنع بأن يسجل ما أقره الأدباء والعلماء ، بل شاء أن يوجه نحو تطوير اللغة والنهوض بها . وكان لتوجيهه أثره ، وتبارى الكتاب فى التجديد والابتكار . والواقع أن مستحدثات الحضارة والعلم لا تنقطع ، ولا حياة للغة إلا إن واجهتها ، وعرفت كيف تؤديها على وجهها .

٦ — لم تخل الكتابة — بدورها — من طابع دينى ، فقيل إنها من وحى إلهى ، عزاها المصريون إلى الإله توت ، واعتقد العبرانيون أن موسى تلقاها عن الله ، وقال بعض مؤرخى العرب إنها توقيف من آدم ، ولا تزال حتى اليوم مرتبطة بالسحر فى أرقى الشعوب حضارة . وإذا كان للكلمة الملفوظة قوة سحرية ، فالكلمة المكتوبة بها أولى ، ومن ثم كان الكتبة الأول من السحرة . وما إن اختلطت الكتابة بالحياة المدنية وصارت فى متناول عامة الناس ، حتى أخذت تتطور بتطور الزمن . قامت أولا على الصور والأشكال . ثم تحولت إلى رموز وحروف وإن لم تفقد اعتبارات الرسم والفنون الجميلة . وأضحت الكتابة لغة إلى جانب لغة النطق ، ومن بيننا من يتفاهمون اليوم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . ولا سبيل

لتعليم بدون قراءة وكتابة ، والصورة الذهنية لكلمة أكثر ارتباطاً برسمها منها بنطقها .

وقديماً قال ڤولتير إن « الكتابة صورة الصوت، كلما كانت أكثر شبهاً به كانت خيراً » ، فالكتابة المثلى هي التي لا تدل بالحرف على أكثر من صوت، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف، ولم نصل إليها فى لغة ما . فى اللغات الحية جميعها ما يكتب ولا ينطق، وماينطق ولا يكتب ، وفيها حروف تؤدى عدة أصوات ، وأصوات تؤدى بعدة حروف . ويزيد الأمر تعقيداً تفنن النحاة والصرفيين ، وبعض المخلفات التاريخية التى قضت بكتابة كلمات على وجه معين دون أن يتصل ذلك بنطقها . وكلما اتسعت مسافة الخلف بين اللغة الدارجة والفصحى، تعقدت مشكلة رسم الحروف، ويحاول المصلحون دائماً تدارك هذا النقص . وكثيراً ما تعذر عليهم ذلك ، تحت ضغط العرف والتقاليد، ولأن لغة النطق أسرع تطوراً فى حين أن لغة الكتابة أكثر محافظة .

والخط العربى نبطى الأصل ، يشبه الكتابة النبطية فى رسمها ، واتخاذ شكلين للحرف فى أول الكلمة وآخرها ، واستعمال الفواصل ، وربط الحروف بعضها ببعض. نشأ ونما فى الحجاز حيث التجارة والحضارة والسيادة، ثم انتقل إلى أجزاء الجزيرة الأخرى . وكانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، مرتبة فى أغلب الظن على حسب الترتيب الأبجدى، وقد حث النبى الأمى على تعلم الكتابة، وقبل أن يفتدى أسرى بدر أنفسهم بأن يعلم كل واحد منهم عشرة صبيان مسلمين الكتابة ، وكان وحى كتاب كثيرون . ولكن الكتابة لم تنتشر إلا بعد أن مصّرت الأمصار ودوّنت الدواوين ، وتبارى الخطاطون فى إجادة الخط ، وكان منهم الوزراء والمحدّثون والمؤرخون . وتفننوا فيه فجعلوا منه نسخاً ، وثلثاً ، ورقعة ، وكوفياً ، وفارسياً ، وأصبح فى مقدمة الفنون الجميلة العربية. ودبجت به المصاحف ، وزينت الحوائط والسقوف ، وأعدت منه لوحات آية

فى الجمال . وتنافس الملوك والأمراء فى أن يتوافر لديهم أحسن الخطاطين وأن يفتنوا أروع ما أنتجوا . ولم يقف الخط العربى عند جزيرة العرب وحدها ، بل امتد إلى بلاد أخرى فى آسيا وإفريقيا وأوربا ، وسار مع الإسلام أينما سار . فاستعمله الفرس والترك والهنود والملايو والمصريون والمغاربة ولغات مختلفة من إفريقيا ، ويكاد يصعد عدد الشعوب التى تستخدمه إلى نحو ٣٠٠ مليون نسمة .

ومنذ عهد مبكر ظهر أن الحروف وحدها لا تكفى فى التعبير عن الأصوات وضبط النطق ، خصوصًا بعد أن اختلط العجم بالعرب وضعفت السليقة ، وبدأت تبعد المسافة بين اللغة الدارجة والفصحى . والعربية لغة إعراب ، يتغير فيها معنى الكلمة بل معنى الجملة بتغير النطق ، وكم تحدث أبواب الفعل الثلاثى ومصادره من لبس ، وقد تختلط الأسماء المبنية والمعربة والمصروفة والممنوعة من الصرف . فالتجئ إلى الشكل بوضع نقطة فوق للفتحة ، ونقطة أسفل للكسرة ، ونقطة على شمال الحرف للضمة ، وأهمل السكون ثم تحولت هذه النقط إلى حروف صغيرة . ولوحظ كتابتها بلون غير لون الحروف نفسها . وزيادة فى الضبط وتفرقة للحروف المتشابهة رسمًا بعضها عن بعض استخدم الإعجام ، فنقطت الجيم والخاء مثلا وأهملت الحاء ، وعلى أساس هذا الإعجام رتبت حروف الهجاء على النحو المألوف اليوم . وعلى هذا عدل الخط العربى وهذب وضبط ، تبعًا لحاجات العصر ومقتضياته .

ولا شك فى أن رسم المصحف وضبطه كان الشغل الشاغل ، ولم يحس أبو بكر وعثمان عند جمعهما للقرآن بحاجتهما إلى نقط أو شكل ، ولكن ما لبث المسلمون أن تبينوا ضرورة ذلك . وكتب القرآن برسم أريد به أن يكون تعبديًا ، وإن لم يتفق مع الهجاء وقواعد الإملاء . وأصبح أثرًا تاريخيًا اجتمع لنا به كتابتان : إحداهما قرآنية ، والأخرى غير قرآنية . وزاد الأمر تعقيدًا قواعد رسم الهمزة والألف اللينة التى يلاقى فيها المبتدئون

من التلاميذ بل المنتهون عنتاً شديداً . وهناك أعلام وكلمات أعجمية معربة تشتمل على أصوات لا وجود لها فى العربية، وكثيراً ما خلط العرب فى نطقها، ولعل ابن خلدون من أقدم من تنبهوا إلى ذلك وحاولوا معالجته . وفيما عداه لم تلفت هذه الصعاب النظر ، وبقيت الكتابة العربية وكأنها براء من كل عيب ، لها قداسة تحول دون التفكير فى تهذيبها وإصلاحها .

٧ — وفى اخريات القرن الماضى أثيرت صعاب الكتابة العربية ، على غرار ما أثير حول الكتابة الفرنسية والإنجليزية فى الغالب ، لا سيا أن الشقة قد بعدت بين الدارجة والفصحى بعداً دفع فريقاً من الناس إلى الدعوة إلى العامية والانتصار لها . وفوق هذا فى إصلاح الكتابة استجابة لمقتضيات تعليم الشعب ومحاربة الأمية، ذلك لأن الكتابة لم تعد بعد وقفاً على أرستقراطية فكرية أو اقتصادية كما كانت فى الماضى ، بل أضحت حقاً مقرراً للجميع ، وينبغى تيسيرها ما أمكن . والناس عادة أمام الإصلاح فريقان : محافظون يرون أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ومجددون يلاحقون سير الزمن ، وهؤلاء بدورهم متطرفون يأبون إلا أن يقطعوا الشوط دفعة واحدة، أو معتدلون يذهبون إلى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، ولا بد أن يسير الإصلاح فى تدرج وهوادة . ولقد صادفتنا فى نصف القرن الماضى مشاكل لغوية متعددة وفى مقدمتها — دون نزاع — مشكلة الكتابة التى كانت ولا تزال موضع أخذ ورد .

وقدمت لها حلول شتى تتلخص فى اتجاهين رئيسين يرمى أحدهما إلى إحلال اللاتينية محل الكتابة العربية ، ويحاول الآخر أن يعدلها على نحو يعالج ما فيها من غموض أو لبس . وليس القول بالحروف اللاتينية جديداً ، فقد عرض فى أخريات القرن الماضى ، وأكده داود الجلبي فى العقد الأول من هذا القرن ، وشجعت عليه تجربة الأتراك وإن اختلف

وضع لغتهم كثيراً عن العربية . وظهر فى عام ١٩٦١ كتاب « يارى » ، الذى شاء به الأستاذ سعيد عقل أن يطبق الحروف اللاتينية على الكتابة العربية تطبيقاً عملياً . ولكن أحداً لم يدرس هذا الموضوع دراسة المرحوم « عبد العزيز فهمى » عضو مجمع اللغة العربية ، وليس فى مكنة كثيرين أن يدافعوا عنه دفاعه ، ومع ذلك لم يحظ بالقبول .

والواقع أن « مجمع اللغة العربية » عنى منذ ربع قرن بتيسير الكتابة العربية ، وأعد جائزة مالية لأحسن اقتراح فيها . ووصلته عشرات الاقتراحات التى قضى زمناً فى بحثها ، ولم يرتض واحداً منها . وفى مقدمة ما عرض عليه مشروع « عبد العزيز فهمى » ، الذى وقف عليه دورة كاملة من دورات مؤتمره . ودون أن ندخل فى تفاصيله ، نكتفى بأن نشير إلى أنه لا يقنع بمجرد إبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، بل يلاحظ أن هناك أصواتاً خاصة بالعربية ، ويحاول أن يؤديها بحروف لاتينية مركبة على نحو ما صنع المستشرقون من قبل . وإذا كنا « نفهم لنقرأ » على غير ما ينبغى ، فيزعم أن مشروعه ينتهى بنا إلى الوضع السليم وهو أن « نقرأ لنفهم » ، وهو بهذا يصوب إلى معالجة مشكلتى الكتابة والقراءة معاً . ولقد رد عليه داخل المجمع وخارجه ، ومن أهم ما أخذ على اقتراحه أنه يقطع الصلة بالماضى لمستقبل غير موثوق به . فإن الحروف اللاتينية لا تتلاءم مع طبيعة العربية لغة الإعراب والصرف ، هذا إلى أنها أقل اختزالاً من الحروف العربية وتشغل حيزاً أكبر ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ولها أخيراً صعوباتها ، وليس ثمة كتابة تخلو من صعوبات . وما صنعه الأتراك لا يقاس عليه لأن لغتهم أضيق مجالاً وأقل استعمالا ، وماضيها لا يذكر فى شىء بجانب ماضى اللغة العربية ، وليست لها كتابة خاصة بها تحاول العدول عنها . وجاء أخيراً كتاب « يارى » دليلاً عملياً على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة ، فإنه لا يقرا ولا يفهم قبل أن يعرب .

أما المقترحات الأخرى فتبقى كلها على الحروف العربية معدلة رسمها ،

أو مدمجة للشكل كما هو فى جسم الحرف ، أو مستعملة حروف العلة بدلا منه . ولم يكن غريباً أن يرفض كل هذا ، لأنه فضلاً عما فيه من تنكير لا يحقق شيئاً من التيسير .

واستمر المجمع يقلب الأمر على وجوهه ، وآثر أن يدع مؤقتاً الكتابة اليدوية ، ويشغل خاصة بحروف الطباعة والآلات الكاتبة ، وتبين له أن فى الإمكان اختصار صور الحروف بتمثيل الحرف بصورة واحدة ما أمكن على اختلاف مواقعه من الكلمة ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربى وفنه وتجنب المباعدة بين القديم والجديد . ولم يفته أن يعالج صور الهمزة وكتابة الأرقام وعلامات الشكل والترقيم ، وأدخل عليها كثيراً من الاختصار والتحسين . وانتهى إلى طريقة تهبط بصور الحروف ولواحقها للجمع المشكول شكلا كاملا إلى ١٣٥ ، بعد أن كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٧٠ بحسب الجمع الآلى واليدوى .

وهذا ولا شك اختصار يوفر كثيراً من الجهد والمال ، وبه يصبح صندوق الطباعة العربية قريباً من صندوق الطباعة بالحروف اللاتينية التى يبلغ عددها ١١٥ . وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل فلم تستنكرها العين ، ولم تخل من الجمال . وأساسها خط النسخ المستعمل فى الطباعة ، والمألوف لدى كل من يكتبون بالعربية .

وتيسيراً للقراءة رأى المجمع أن يلتزم الشكل فى كتب مراحل التعليم العام على درجات متفاوتة وفى حدود قواعد واضحة ، وأن يوضع فى مكان ثابت من الحروف تألفه العين ولا يختل به توازن السطور ، وأن يوضع النقط فى موضع ثابت نفياً للاشتباه .

وكم دعا المجمع إلى تيسير النحو والإملاء ، ووضع فى ذلك مشروعات محددة . ونادى من قديم بوضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التى لا مقابل لها فى العربية ، وحاول رسم طريقة لكتابة الأعلام الأجنبية .

* * *

ودعوات كهذه إن لم يستجب لها اليوم، فهى آخذة طريقها لا محالة ، ومن يدرى فقد يكون فى تيسير الكتابة المقترح ما يؤدى إلى اختصار أعظم ، أو ما ينتهى إلى كتابة الحروف منفصلة بحيث لا تأخذ إلا شكلا واحداً ؟ وهناك اتجاه عام يؤثر التدرج ويأبى الطفرة ، لأن من الخير أن يربط الحاضر بالماضى ، وابتكار طريقة جديدة للكتابة إن فرض على شعب بوسيلة ما ، فلا سبيل لتطبيقه على شعوب أخرى لا تقره . ونحن جميعاً عبيد الإلف والعادة ، ولا نزاع فى أن الجماعات والأفراد تخضع لهما أكثر مما تخضع للعقل والمنطق .

٤

الأدب العربى المعاصر

يسير الأدب واللغة دائماً فى ركب الحضارة ويحملان طابعها : وأدبنا الحديث ثمرة نهضتنا وصدى ليقظتنا ووعينا ، تعددت موارده . وتنوعت ثماره. وأخذ ينافس الآداب الأخرى ، ويقف معها جنباً إلى جنب .

وأذكر أنه منذ عشر سنوات وقفت مجلة Preuves الفرنسية على الأدب العربى ندوة من ندواتها التى تعقد بباريس يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وأشرف عليها الأستاذ Le Serf أستاذ الأدب العربى بمدرسة اللغات الشرقية وكان موضوعها : «هل يمكن أن يعد الأدب العربى بين الآداب العالمية ؟» .

وبعد هذه الندوة ببضعة أشهر ، عقدت فى روما حلقة حول « الأدب العربى المعاصر » ، واشترك فيها بعض المستشرقين ، وعدد من كبار أدباء أوربا وأمريكا ، ونخبة من الكتاب والشعراء فى العالم العربى .

وفى هذه الحلقة وتلك الندوة ، أثيرت مشاكل كثيرة حول أدبنا فى لفظه ومعناه ، فى أسلوبه وموضوعه ، فى نثره ونظمه ، فى قصصه ورواياته ، فى إذاعاته ومسرحياته ، فى صلته بالفكر والثقافة العالمية ، فى مدى استجابته لمبتكرات العلم والحضارة ، فى تأثره بالمذاهب والنظريات الحديثة ، أدبية كانت أو اجتماعية أو سياسية ، فى حرية الأديب العربى وقدرته على الخلق والابتكار .

وقد عولجت هذه المشاكل على اختلافها فى حلقة روما خاصة علاجاً مستفيضاً ، وأثيرت حولها مناقشات ممتعة :

ولا نزاع فى أننا صنعنا أدباً عربياً ، يعبر عن بيئتنا ومجتمعنا ، ويترجم عن إحساسنا ووجداننا ، أدباً فيه يسر وطلاقة ، وبيان ووضوح . يصوب إلى الهدف فى دقة ، ويحاول أن يصل إلى الغاية من أخصر طريق . أدباً يأخذ عن العلم والتكنولوجيا ، ويصور المذاهب والإديولوجيات المعاصرة ويلتقى مع عصر السرعة الذى نعيش فيه . وأصبحنا نفرق بين أدب حديث وآخر قديم ، بين أدب معاصر وأدب كلاسيكى .

ولأدبنا المعاصر خصائصه ومميزاته ، فهو دون نزاع أكثر تنوعاً من الأدب القديم ، فيه أدب القصة والمسرح ، والإذاعة والسينما ، إلى جانب ألوان الأدب التقليدية ، من بحث وتأليف ، وخطب ورسائل ، ونقد ومقالة . وهو دون نزاع أيضاً أكثر اتصالاً بالجماهير ، عن طريق الصحافة والإذاعة ، والمسرح والسينما . وإذا لاحظنا أنا نعيش فى عصر نشر التعليم ، ومحاربة الأمية ، أدركنا أن جمهور الأدب يزداد عاماً بعد عام ، بل يوماً بعد يوم . يزداد كلما فتحنا مدرسة أو فصلا جديداً ، يزداد كلما نظمنا إذاعة أو أقمنا داراً للمسرح أو السينما . والثقافة الشعبية واجب هام من واجبات الدولة اليوم ، ترعاها وتغذيها بأكمل غذاء .

وقد تضافرت على خدمة أدبنا المعاصر معاهد متنوعة ، ومراكز ثقافية متعددة ، وكنا بالأمس لا نتحدث إلا عن بعض العواصم الأدبية الكبرى ، أمثال بغداد ودمشق ، والقاهرة والقيروان ، أما اليوم فنستطيع أن نضم إليها عشرات المدن العربية الأخرى التى تزخر بدراسة الأدب وتولع به . . . ويمكن أن نضم إليها مدناً أخرى غير عربية فى آسيا وأوربا وأمريكا . ففى باكستان والهند وأندونيسيا يدرس الأدب العربى ، كما يدرس فى روسيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا — ويدرس فى كثير من جامعات الولايات المتحدة ومعاهدها ، كما يدرس فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية ، ولأدب المهجر شأن فى نهضتنا الأدبية الحديثة .

ولم يقطع الأدب المعاصر شوط النهوض فى يسر وسهولة ، فقد قاسى

ما قاسى من استعمار طاغ ، واستبداد متحكم ، وجمود قاتل ، وجهل متفش. بدأ يناضل فى أخريات القرن الماضى ، ووثب وثبة قوية فى الخمسين سنة الأخيرة . وحياته فى أن يواصل السير والحركة ، ولا يتوقف عن النضال يومًا . ومن أهم ما عانى ذلك الصراع الدائم بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع . وسر نجاحه فى تلك المحاولة الجادة والمستمرة التى تهدف إلى المواءمة بين الأمس واليوم ، والتوفيق بين القديم والجديد ، مما لم يتوافر لكثير من الآداب الأخرى . فهو فى آن واحد سلفى وتقدمى ، محافظ ومجدد ، ومن الخرق أن نحاول اليوم الخروج على هذه الموازنة الدقيقة التى تربط الحاضر بالماضى ، ونتخذ من تراث الآباء عدة للمستقبل ، لنجدد ما شئنا ولكن فى ضوء هذه الحدود .

* * *

يتساءل أحيانًا عن منزلة الأدب العربى بين الآداب العالمية الكبرى ، وقد لا تخلو الإجابة عن هذا السؤال من هوى زائف ، أو تعصب أعمى . والأمر أسمى من أن يحمل هذا المحمل . وجدير بنا أن نتفق أولا على مدلول الأدب العالمى ، وعندى أنه ذلك الأدب الذى يعالج الإنسان والطبيعة معالجة فيها أصالة وابتكار ، فهو أدب مبدع خلاق يسمو على الزمان والمكان ، ويصبح ملك الإنسانية جمعاء . ينشده عشاقه ، ويسعى وراءه طلابه ، دون بحث عن جنس أو وطن . وعلى هذا ليس ثمة أدب عالمى فى كل ثماره ، ويوم أن يتوافر لأدب إنتاج يتسم بالإبداع والبراعة عدّ لا محالة فى مصاف الآداب العالمية ، والأثر الفنى الباهر فى غنى عن الحسب والنسب والاعتداد بالجنس والوطن ، وله من قيمته الذاتية ما يؤهله للذيوع والخلود .

ولقد كان لنا بالأمس أدب فاق كل الآداب المعاصرة ، وأمدها بفيض منه ، فغذى الأدب الفارسى والتركى ، وزود الأدب السريانى والعبرى ، وامتد إلى اللغات الأردية والهندية . وبزّ بوجه خاص الأدب اللاتينى الذى

ساد أوربا نحو عشرة قرون ، وأغدق عليه من ثماره ، وفتح أمامه آفاقاً جديدة ، وكان له شأن فى نهضة أوربا العلمية والأدبية .

وينحو أدبنا اليوم هذا المنحى مرة أخرى . فيحاول أن يجدد وينوع ، وأن يبدع ويبتكر ، وأن يسهم فى ميدان الثقافة العالمية — واستطاع أن يحقق فى نصف قرن ما لم تصل إليه آداب أخرى فى أجيال متلاحقة — وأضحى لا يقنع بمجرد الأخذ عن الآداب الكبرى ، بل طمع فى أن يعطيها ، وقد أعطاها فعلا ، فترجم قدر من ذخائره إلى عدة لغات أجنبية . وهو مع هذا كله لا يزعم مطلقاً أنه بلغ الغاية ، ولا يزال أمامه آفاق يفتحها وميادين يغزوها ، وصعاب يذللها . ونظرة إلى الوراء قليلا كفيلة بأن تطمئننا إلى أنه يسير إلى الأمام دائماً ، وأن الأخذ عنه فى زيادة مطردة .

خاتمة

عنى الباحثون بالدراسات اللغوية عناية كبيرة منذ النصف الأخير من القرن الماضى ، وعالجوها من جوانب مختلفة : بين فيلولوجية وتاريخية ، ميكلوجية واجتماعية . ونالت العربية حظا غير قليل من هذه العناية ، فربطت بأخواتها السامية ، وكشف عن كثير من لهجاتها القديمة والحديثة ، وأصبحنا نؤمن بأن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن ، وتتطور بتطور المجتمع . ولم يصل هذا الإيمان إلى درجة من اليقين قدر ما وصل إليه اليوم ، لأننا نلمس سير لغتنا معنا ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ونرى ونسمع ما يدخل فيها من ألفاظ وتراكيب جديدة ، ولّدها العلم ، ودعت إليها ظروف الحضارة . وما دام الفكر فى تجدد ، فلا مناص من أن تتجدّد اللغة معه ، ولا بد لكل فكرة جديدة من لفظ يؤديها .

واللغة الجامدة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، ولا تستطيع أن تؤدى وظيفتها أداء كاملا . وجمودها فى الغالب صدى لجمود الناطقين بها ، فإن تحركوا تحركت معهم لا محالة . ولم يبق محل لأن نقول « بلغة مثالية » لا تقبل التعديل ولا التبديل ، تلك فكرة بالية ولا يمكن الأخذ بها . هناك عصور مزدهرة فى الأدب واللغة ، وعلينا أن نحاكيها ونفيد منها ، وفى وسعنا أيضًا أن نضيف إليها ونجددها . وتلك مهمة الأدباء واللغويين والعلماء والفنيين ، فهم مطالبون دائمًا بأن يبتكروا ويجددوا ، وعليهم أن يملأوا العربية حياة وقوة ، كى تصمد فى الصراع الحضارى واللغوى الذى نعيش فيه اليوم ، وتستعيد مجدها بين اللغات العالمية الكبرى .

وفى طبيعة العربية ما يعينها على هذا الصراع ، فهى لغة اشتقاقية ،

وفى الاشتقاق ما يكسبها مرونة ومناعة فى آن واحد ، وعن طريقه يمكن أن نخلق ألفاظاً جديدة تنمى اللغة وتسد الحاجة . ومن الخير أن نتوسع فيه ما أمكن ، فنفك بعض قيوده ، ونشتق مما قيل إنه لا يشتق منه . وهذا ما أخذ مجمع اللغة العربية نفسه به منذ نشأته ، وكلما توسعنا فى الاشتقاق استغنينا عن العامى والأعجمى . ولا محل لأن نغلق باب القياس فى اللغة ، وإن قال بذلك قوم ، فإنما يغلقونه على أنفسهم . وفى وسعنا أن نقيس كما قاس الأقدمون ، وأن نقعد القواعد مثلما قعدوا . وباب الاجتهاد مفتوح فى التشريع واللغة على السواء ، ما دام يضطلع به من هو أهل له .

وإن عز علينا أن نقيس أو أن نشتق ، فلا بأس من أن نعرب ونتبنى بعض الألفاظ الأجنبية . واللغات يأخذ بعضها عن بعض دائماً ، أخذت قديماً ، ولا تزال نأخذ حديثاً ، وما تأخذه ثروة مستحدثة تضاف إلى الثروة الموروثة . ولا نظن أحداً يرفض التعريب اليوم مادامت تدعو إليه حاجة ، وتقضى به ضرورة ، والأمر المعيب إنما هو الإسراف فيه عن جهل أو كسل ، وقد حاول مجمع اللغة العربية أن يضع له بعض القيود والضوابط .

تلك هى القضايا اللغوية الكبرى التى دارت حولها هذه البحوث ، وقد حاولنا تطبيقها فى ميدانين هامين من ميادين اللغة ، وهما المصطلح العلمى ، وفن المعجمات ، وللعلم والفن لغة وثيقة الصلة بلغة الأدب ، وهى بدورها فى تطور مستمر ، وتطورها اليوم مشاهد ملموس ، وهى فى تطورها خاضعة لما قررنا من مبادئ ، فللعالم أو الفنان كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية أو الفنية ، ولكن عليه أن يبحث عنه أولا فى الفصحى ، فإن لم يجد استعان بالعامية دون خروج على أصول العربية ، وإن عز عليه ذلك لجأ إلى التعريب ، نزولا عند حكم الضرورة ، ورغبة فى أداء المعنى أداء صادقاً .

وكان لا بد للمعجم اللغوى أن يتطور أيضًا فى مادته ومنهجه ، فتضاف إليه ألفاظ خلا منها ، وترتب أبوابه ترتيبًا أنظم وأيسر ، وتصاغ تعريفاته صياغة واضحة دقيقة ، تعين على الفهم ، وتتفق مع ما انتهى إليه العلم من آراء ونظريات . وقد خطا المعجم العربى خطوات فسيحة فى القرن العشرين ، وأصبح لا يختلف عن كثير من المعجمات الأوربية الحديثة فى ضبطها ودقتها . وأسهم مجمع اللغة العربية فى ذلك بنصيب كبير ، فرسم منهج التأليف المعجمى فى عناية . وطبقه فى معجميه « الوسيط » . و « الكبير » . وينبغى أن يعبر معجم القرن العشرين عن اللغة فى مختلف عصورها ، فيضم ألفاظًا حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والفنية ، ويلتزم ترتيبًا سهلاً ، فترتب كلماته ما أمكن على حسب نطقها لا على حسب تصريفها . ومشكلة التبويب من صعوبات المعجم العربى ، وقد بذلت فيها فى نصف القرن الأخير جهود متلاحقة ، انتهى بعضها إلى الأخذ بالترتيب الأبجدى الصرف دون مراعاة لمادة لغوية أو تصريف . ونحن نرحب بالتيسير دائمًا ، ولكنه قد يؤدى أحيانًا إلى عكس المراد منه ، وهو هنا لا يتلاءم مع طبيعة العربية ، ولكل لغة خصائصها ومميزاتها ، وما يصلح لواحدة منها قد لا يصلح للأخرى .

* * *

وأما الأدب فلم نقف عنده طويلا ، واكتفينا بأن نشير منه إلى جانبين اثنين تبدو فيهما فكرة التطور واضحة ، وهما الشعر والقصة . وقد تطور الشعر العربى من قديم ، تطور فى لفظه ومعناه ، كما تطور فى أخيلته ومبناه . والأوزان الشعرية متنوعة ومتجددة ، والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة . أما الشعراء فيعتدون بعبقريتهم ، ويحرصون على حريتهم فى تجديدهم واختراعهم ، ومنهم من لا يعرف العروض مطلقًا ، والموشحات — مثلاً — لون من ألوان الشعر

ابتدعه الأندلسيون ، وتفننوا فيه كل التفنن . والشعر الشعبى باب هام من أبواب الأدب ؛ ولا يقف عند بحور الخليل وأوزانه . « والشعر الحر » ، الذى دار حوله جدل طويل ؛ لون آخر لا نستطيع إنكاره جملة ، وإلا أنكرنا على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع ، ولا نستطيع أن نقبله على علاته ، لأنا متفقون على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الموسيقى .

والقصة باب كبير من أبواب الأدب ، عرفت فى الآداب القديمة ، وبلغت القمة فى الآداب الحديثة . وفى الأدب العربى القديم جانب قصصى ، يمكن أن يعد منه تلك الأقاصيص التى وردت فى بعض كتب الأدب الكبرى « كالأغانى » ، « والأمالى » ، و العقد الفريد » . والمعلقات فى قسط كبير منها ضرب من القصص المنظوم . ويوم أن اختلط العرب بالأمم الأخرى تأثروا بآدابها ، ونقلوا عنها قصصاً هامة مثل « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » . وابتكروا ألواناً من القصص الأدبى خاصة بهم كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمته « مقامات » بديع الزمان والحريرى ، و « رحلة » ابن جبير وابن بطوطة ، إلا أن القصة لم تبرز فى الأدب العربى بروزها فى الآداب الأخرى ، وكان لا بد أن ننتظر إلى القرن العشرين ، لكى تأخذ القصة مكانتها فى أدبنا المعاصر . واستطعنا أخيراً تحت سنة التطور أن نضع قصصاً لا تقل بهاء وروعة عن بعض القصص الأجنبية ، فيها تحليل تاريخى ونقد اجتماعى ، فيها وصف لأماكن وبقاع وتصوير لبعض الطبائع والخصال ، فيها علم وفلسفة وفن حضارة . تمزج الخيال بالواقع ، وتكشف عن مكنون الصدور وخفى الطباع . وأصبح لدينا أدب قصصى يؤخذ عنه كما نأخذ عن الآداب الأخرى .

الفهرس

صفحة

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٦٢٤٧

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠